ظاهرة خطف العمائم في مصر عصر المماليك الجراكسة

إعداد

د. محمد السيد محمد فياض

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

كلية الآداب جامعة طنطا

المستخلص:

تناقش هذه الدراسة إشكالية جديدة من إشكاليات التاريخ الاجتماعى فى العصر المملوكى والمتمثلة فى ظاهرة خطف العمائم تلك الظاهرة الاجتماعية التى عبرت عن العديد من الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والتى عكست حالة من حالات التمرد الشعبى ، ومدى علاقة هذه الظاهرة بالواقع النفسى والسلوكيات الفردية والجماعية فى العصر المملوكى ، وقد ناقش الباحث هذه القضية من خلال محاور متعددة منها خصوصية ورمزية العمامة فى مجتمع العصر المملوكى ، هجمات وتحركات الغوغاء والعوام وخطف العمائم ، الصدامات الاجتماعية والاشتباكات وخطف العمائم ، اللصوص وسرقة العمائم ، المماليك الجلبان وخطف العمائم ، وصولاً لخلاصة البحث وتحليل نتائجه من خلال منهج إحصائى .

الكلمات الإفتتاحية : خطف العمائم ، عصر المماليك ، الجراكسة .

ظاهرة خطف العمائم في مصر عصر المماليك الجراكسة [١]

تناقش هذه الدراسة حالة استثنائية فى التاريخ المملوكى ، وهى ظاهرة خطف العمائم ، تلك الظاهرة التى ظهرت فى متون النصوص التاريخية وتماست مع ممارسات سياسية واقتصادية واجتماعية ، عبرت عن حالة من حالات التمرد الاجتماعى ، أو كما وصفها ماير بأنها تلك العادة " التى كان يمارسها عصاة المماليك من خطف العمائم من فوق رؤوس المدنيين ، وكان يحدث ذلك بصفة خاصة فى الأيام التى كانت تسود فيها الاضطرابات " [٢] ، وفى الواقع فقد تجلت هذه الظاهرة فى العديد من المناسبات ، إن الظاهرة موضوع الدراسة يمكن أن تبدو كحالة من حالات التاريخ الشعبى المعارض [٣] ، أو كمظهر من مظاهر التمرد وكسر الهيبة نظراً للأهمية الكبيرة للعمامة ورمزيتها البارزة فى العصر المملوكى .

---

[١] لم يشأ الباحث أن يحدد الفترة الزمنية للمماليك الجراكسة التى تقع فى الحدود الزمنية ٧٨٤هـ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧ م) وربما كان العذر فى هذا أننا أمام ظاهرة اجتماعية من الصعب القطع ببدايتها فضلاً عن عدم ورودها بشكل حولى على مدار فترة الدراسة فهى كظاهرة اجتماعية خضعت لمؤثرات سياسية واجتماعية واقتصادية لم تحدث بشكل اعتيادى عبر كافة سنوات الدراسة ، ومن الجدير بالذكر ورغم تمحور الفترة التاريخية للدراسة فى عصر المماليك الجراكسة إلا أن الباحث أورد عدة حوادث فى متن الدراسة قبيل الولوج لفترة حكم الجراكسة التى بدأت من العام فهناك عوامل اجتماعية ونفسية ساهمت فى حدوتها مرتبطة بتطورات المجتمع ، ورغم ذلك فقد جاءت كل الحوادث السابقة على فترة الدراسة فى سياق القرن الثامن الهجرى ذات القرن الذى شهد تحول السلطة لعصر المماليك الجراكسة .

[٢] الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م ، ص ٩٢ .

[٣] صورت السير الشعبية المعاصرة للعصر المملوكى ظاهرة خطف العمائم بشكل بالغ الوضوح والدلالة ، ففى سيرة الظاهر بيبرس نجد أن البطل الشعبى الأسطورى عثمان بن الحبلة يقوم بخطف العمائم كشكل من أشكال التمرد ضد السلطة وضد الواقع الاجتماعى ، هذا البطل الشعبى الذى كان مرهوب الجانب من السلطة والشعب معا ، وحسب السيرة الشعبية فلم يتمكن أحد من مقاومته أو الوقوف في طريقه ، ، وقد حذرت السيرة الظاهر بيبرس من أن يصطدم مع عثمان بن الحبلة وإلا انخرقت هيبته في مصر كلها وهيبة السلطنة معه . وللوقوف على إشكالية العلاقة بين البطل الشعبى عثمان بن الحبلة والظاهر بيبرس كما عكسته السيرة الشعبية انظر : أحمد عبد السلام ناصف : صورة الثائر والمتمرد فى كتب التراث الشعبى : عثمان بن الحبلة وسيرة الظاهر بيبرس أنموذجاً ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة المنوفية ، السنة ٣٩ ، العدد ١١٣ ، الجزء الثالث . ابريل ٢٠١٨ ؛ وكذلك راجع : إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢ ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، سلسلة عالم

إن الباحث يجد ضرورة حتمية لتفكيك الظاهرة من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، فالوقائع التاريخية حسب تعبير أحد الباحثين في جوهرها تعكس سلوكيات فردية وجماعية ، وعليه فهي نتاج بنية نفسية تعكس في جوانب كثيرة منها المكبوتات الداخلية للمجتمع، والتي تحتفظ بها الذاكرة الجماعية، والحقيقة فإن اعتماد المؤرخين المعاصرين على المقاربة السيكولوجية في الكتابة التاريخية الحديثة ساعدهم كثيراً في توجيه تفكيرهم نحو مجالات مغمورة وطرحوا أسئلة جديدة لم يكن من الممكن طرحها لولا الآفاق الجديدة التي فتحها توظيف مناهج التحليل النفسي في البحث التاريخي[١] .

ومهما يكن من أمر فإن الباحث فى هذه الإشكالية لا يمكنه دراستها بمعزل عن النوازع النفسية والاجتماعية ، فالظاهرة موضوع الدراسة لن تدور إلا من خلال دوائر مغلقة محاورها الرئيسية هى التمرد ، والعنف ، والعدوان ، وتبخيس الآخر ، هذه الأفكار بطبيعة الحال تولدت

المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٤١م، ص ٣٠٤ ، وحسب إحدى النصائح الموجهة لبيبرس فى السيرة الشعبية والمنسوبة إلى شخصية تدعى بالأغا شاهين وزير الملك الصالح فهو يحذر بيبرس من أولاد مصر وعلى رأسهم عثمان بن الحبلة ، بقوله " إياك ثم إياك أن تستخدم رجلا يقال له عثمان بن الحبله ، لأنه رجلٌ لا يصطلى له بنار في أرض مصر ، وقد أذل أهلها وقد بلاهم بالقهر ، وما دأبه إلا خطف العمائم ، ولا يبالي من الأكابر ولا من الأصاغر وهو كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان . انظر : أحمد ناصف : صورة الثائر والمتمرد ، ص ٢٠٦٨ ؛ إبراهيم حنفي : البنية الأسطورية ، ص١٤٠ ؛ محمد النجار : حكايات الشطار والعيارين ، ص ٣٠٤ ، وتنقل السيرة منظر بيت عثمان بن الحبلة ففيه قاعة بها كثير من العمائم ومقل وجبب ملونات وشيلان وبرانص وطقوم وغير ذلك، وحسب السيرة الشعبية فإن بيبرس قد تعجب من هذا المنزل قائلاً لأم عثمان بن الحبلة التى حاولت أن تقرب بين ابنها وبين بيبرس إني أرى بيتك من تحت كبيوت السادات والقادات، ومن فوق كبيوت دلالين الأسواق، فقالت له هذه الملابس والعمائم التي يخطفها ابني عثمان من الجميع من حكام وأمراء ولا يخاف منه، وهذه هي عادته ولا يخاف أحداً . انظر : سيرة الظاهر بيبرس، مج١، ج٤، ص٣١٤، ٣١٥؛ أحمد ناصف : صورة الثائر ، ص ٢٠٧٠؛ إبراهيم حنفي: البنية الأسطورية، ص١٤٣، وهو ما يعكس قضية خطف العمائم ومدى حضورها الطاغى فى السير الشعبية العاكسة لروح العصر المملوكى .

(١) أشرف صالح : التفسير السيكولوجي للتاريخ، بحث منشور في دورية كان التاريخية ، السنة الرابعة، العدد الثالث عشر، سبتمبر ٢٠١١ ، ص ٧ .

من الظرف العام لفترة حكم المماليك الجراكسة بما رافقه من ظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية ونفسية [١] .

بطبيعة الحال فإن ظاهرة خطف العمائم ليست إلا موضوعاً كبيراً يأتى تحت بند العنف الرمزى التى مارسته جماعات إما مهمشة أو متقوقعة كما سيبدو لنا لاحقاً من سيرورة الدراسة ، والعنف الرمزى هنا يأتى تحت بند الاستباحة والتبخيس المعنوى والعدوانية الرمزية أو اللفظية ، التى لا تعرف الحدود لممتلكات الآخرين وحياتهم على حد سواء ، دون أدنى اعتبار لحقوق المواطنة أو الجيرة أو المشاركة فى الانتماء ، فهذا الإنسان الذى عانى من استباحة مزمنة لحقوقه وكيانه لا يجد أمامه من نموذج فى تلك الظروف إلا الإقدام على استباحة حقوق الآخرين بقدر ما يستطيع[٢].

---

(١) وبتحليل أحد الأساتذة فإن العدوانية تنخر وجود الإنسان المقهور عموماً ... والعنف الرمزى أحد أدواته ....، والعنف الرمزى ليس إلا تعبيراً انفجارياً عن ميول التمرد فى الجماعة ، والتمرد على القوانين والاعتداء عليها رمزياً اعتداء على السلطة التى وضعتها ، وتعريض الذات لأخطار الملاحقة والعقاب ، وبعض الأساليب الرمزية لها وظيفة تفريجية واضحة ، والعنف أيضاً حسب ذات التحليل يبقى الوسيلة الأخيرة فى يد الإنسان للإفلات من مأزقه ومن خطر الاندثار الداخلى الذى يتضمنه هذا المأزق ، والعنف هو السلاح الأخير لإعادة شىء من الاعتبار المفقود إلى الذات ، وهو لغة التخاطب الأخيرة الممكنة مع الواقع ومع الآخرين لإقناع الآخر بكيانه وقيمته ، حيث تمارس وتمارس عمليات العدوان التى تحقق لها البطش والغلبة من ناحية ، والعظمة والتعالى من ناحية ثانية، ومثل هذه العناصر فى حالة تعبئة نفسية دائمة استعداداً للصراع ، وتكون الوسيلة الأكثر شيوعاً هى توجيه العدوانية إلى جماعات خارجية من خلال التعصب العرقى أو الطائفى ، وتنهار علاقة التعاطف والمشاركة فى المواطنية وتفتح الطريق عريضة أمام صب كل العنف على الجماعة الغريبة دون قيد أو ضابط ، تحدث استباحة لها ولكيان أفرادها ، وينفجر العنف مكتسحاً كل شىء ، ويفرغ التوتر الداخلى الذى تحول إلى حقد خارجى ، ووفقاً لذات التحليل الهام أن السلوك الجانح فى مجتمع ما مؤشر يتجسد فى تصرف بعض الأشخاص الخارجين عن القانون للدلالة على ما يعتمل باطنياً فى بنية هذا المجتمع من اضطراب ، وما يتراكم فيها من عدوانية كامنة قابلة للانفجار فى ظروف معينة ، وهى دلالة على مقدار العدوانية الكامنة فى شبكة العلاقات الاجتماعية . انظر : مصطفى حجازى : التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥م ، بتصرف ، ص ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٦، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) مصطفى حجازى : التخلف الاجتماعى ، ص ١٧٥ ، ص ١٨٢ .

ويمكن أن نقرأ هذا العدوان أيضاً فى ضوء العملية النفسية التي تعرف "بالشرعنة" وهي العملية النفسية التي تهدف إلى تبرير العدوان على الغير من خلال تأثيمه وتحميله مسؤولية ما يوجد من شر أو مأزق أو خراب مع تبخيس إنسانيته والحط من قدره وتحويله إلى عقبة وجودية في طريق السعادة والوصول إلى تحقيق الذات أو الهدف ، يترافق ذلك مع رد فعل يتلخص ببراءة الذات التي تصور كضحية لذلك الغير[١] ، ويمكن ربط هذه الممارسات أيضاً بعمليات نفسية أخرى مثل " بالتفريج– التصريف – التنفيس" يتم فيها تفريغ الشحنة العاطفية ذات الطبيعة المؤلمة ، والتفريج يعقبه عادة ارتياح عام وعودة السكينة إلى النفس التي تتقاد للتعبير عن المعاناة أو المأساة بحرية تسمح بتصريف كل التوتر المتراكم[٢] .

على أية حال فإن العديد من النصوص تشى لنا عن الرمزية الكبيرة لفُحش فعل خطف للعمامة فى فترة الدراسة يمكننا أن نقتبس النص التالى على سبيل المثال ما أورده أحد المعاصرين بقوله "من أشار على شخص بالتزوج في هذا الزمان وليس له كسب فكأنه يعلمه خطف عمائم الناس والنصب والحيل والغش، وإن كان متعبداً أكل بدينه، فاعمل يا أخي على تحصيل الكسب من الحلال، وتزوج وإلا فعش عزباً"[٣] ، وهو ما يوضح النظرة السلبية الكبيرة لخاطفى العمائم فى فترة الدراسة .

خصوصية ورمزية العمامة فى مجتمع العصر المملوكى

كما قدمنا فإن للعمامة خصوصية ورمزية كبيرة فى مجتمع العصر المملوكى ، كما ربطت الذهنية العامة بين العمائم ورجال العلم والفقهاء وكأن ارتداء العلماء لها فرض وضرورة ، فذكر أحد المعاصرين أن العمامة جعلها البعض للفقيه كأنها فرض عليه وأنه لابد للطالب منها ولا يمكن أن يقعد في الدرس إلا بها ، وفى حالة أنه جلس بدونها فهو أمر يدلل على الاستخافاف والإهانة فإن قعد بغيرها قيل عنه مهين يتهاون بمنصب العلم لا يعطي العلم حقه لا يقوم بما

---

(١) طه الدليمي : التشيع عقيدة دينية أم عقدة نفسية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م ، ص ٣٧٧ .

(٢) مصطفى حجازي : التخلف الاجتماعي، ص ٢٤١ .

(٣) الشعراني: لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الأخلاق المعروفة بالمنن الكبرى، دار التقوى، دمشق، ٢٠٠٤م ، ص١٤٣ ؛ إيمان صلاح: الطلاق والخلع والتحليل بين الممارسات الاجتماعية والنصوص الفقهية ، بحث منشور بمجلة الاستواء ، جامعة قناة السويس ، ٢٠١٩ ، ص٣٥ .

يجب له فانعكس الأمر وذلك التميز عن الأصحاب والأقران ، وكان ارتداء الرجل العمامة وهى مجرد لباس دليل على فقهه وحسب إحدى النصوص " أن من لبس ذلك الثوب عندهم فهو فقيه ، وكانت العمائم أيضاً تميز الخاصة عن العوام وهو ما يمكن أن يفسر لنا بعد ذلك ممارسات العوام فى خطف العمائم وكأنه انعكاس لسخطهم على الطبقات الأعلى ، ويستمر النص فى شرح دور لبس العمامة فى عملية التصنيف الطبقى بأن من يرتدى العمائم يتميز عن العوام وهذه درجة لا تحصل له إلا بعد مدة طويلة حتى تنقله عن درجة العوام ، ومن الغريب أن العوام كانوا ينخدعون فى بعض من يرتدون العمائم ، فكل صاحب عمامة من وجهة نظرهم هو فقيه ومتفقه يمكن الرجوع له فى النوازال والفتاوى ومن الطريف حسبما نقلت بعض النصوص أن بعض مرتدى العمائم لم يكن لهم أى نصيب فى الفهم أو المعرفة الدينية رغم ذلك كان العوام يلجئون لهم بتساؤلاتهم فيصطدمون بضحالة معرفتهم فيسقط من أعينهم بعد أن حصل له عندهم من الفقهاء[١] .

ومن الأمور التى تدلل على الخصوصية الكبيرة للعمامة ورمزيتها الكبيرة أن البعض كان ينحيها ويخلعها تضامناً مع من أصابه حزن أو مصيبة ومواساة له ، وأن خلع العمامة فى هذه الحالة يعتبر من حسن الصحبة والعشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة [٢] .

---

[١]ابن الحاج: المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، [د.ت] ، مج١، ج١، ص١٣٦ ، ١٣٧ ، ومن الجدير بالذكر فإن عمائم الفقهاء قد تميزت بأنها كبيرة الحجم مما أكسبهم هيئة خاصة عرفوا بها ، وليس معنى هذا أنهم انفردوا وحدهم دون غيرهم من طبقات المجتمع الأخرى بلبس العمائم ، وإنما المقصود أن عمائمهم كانت أكبر حجماً وأثقل وزناً ، بحيث تسترعى النظر لتميزها عن عمائم الآخرين . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٨٩ ؛ حسن البطاوى ، أهل العمامة فى مصر عصر سلاطين الممالين ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص ١٣٤ .

[٢] النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب فواز، حكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م ،ج٤، ص١٨٧ ، على أية حال فنظراً لشدة الإقبال على شراء العمائم زادت أسعار شرائها مثلما حدث فى عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م إبان سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية فقد نقلت بعض النصوص أخباراً مفادها الزيادة الكبيرة فى أسعار العمائم . انظر : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق حسين نصار، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م ، ج٨ ، ص١٢٨، ١٢٩ .

كما مر بنا فإن المجال العام المملوكى كان يُدرك هذه الرمزية ، فالعمائم كانت فى مقام التاج عند السلاطين المماليك [١] ، وفى الواقع فإن المصادر التاريخية تربط بوضوح بين التجريد من العمامة وبين الإهانة كعقوبة معنوية كبيرة لبعض رجال الدولة المغضوب عليهم من قبل السلطة[٢] .

ولأن العمامة هوية رمزية كبيرة فى العصر المملوكى فقد كانت مقتصرة على الرجال ولكن عدد كبير من النساء كن يحاولن كسر هذه القاعدة حيث استحدثت النساء لبسها وقلدن فيها الرجال "العمامة" متشبهات بهم[٣]، فأصبحت بعض النساء يستغنين عن لبس العصابة والطرحة بالعمامة، وبالغن في طولها حتى أثرن النفور بذلك [٤] وهو ما لم تقف أمامه السلطة عاجزة

---

(١) ماير : الملابس المملوكية ، ص ٣١ .

[٢]انظر على سبيل المثال ما حدث سنة٩١٧هـ/١٥١١م فقد صدرت أوامر بالهجوم على بيت الأمير عز الدين ناظر الجوالي الغائب بمصر وهرب أخوه من أيدي الأعوان، راكبا مكشوف الرأس فأخذوا عمامته، وقبضوا أخا زوجته، ووضع بالقلعة، بعد أن أشيع بدمشق مجيء عز الدين من مصر على وجه جميل ثم ورد أنه وضعه السلطان الأشرف قانصوه بالقلعة في الحديد، وأسلمه لابن موسر البرددار، ونزل به على أعين الناس في الحديد ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م ، ق١، ص٢٨٥ ، تم إستخدام التجريد من العمامة كأحد وسائل العقاب المعنوى ، ليس ضد أفراد فقط بل ربما ضد مدن بأكملها ، ففي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م وجه الأمير أرغون شاه إلى منية بني خصيب فتقدم أهلها بشكاوى ضد مباشريهم فلم يسمع لهم ، بل وزاد فى الأمر فصدرت أوامره بضربهم ولكنهم قاوموه فرجموه بالحجارة ومماليكه وغلمانه ، واشتدت الصدامات بين الطرفين وهرب عدد كبير من السكان وما يعنينا أن مماليكه أخذوا من عمائم الهاربين أكثر من ثلاثمائة وستين عمامة زرقاء والعمائم الزرقاء معروف أنها عمائم الأقباط ، فلما استكثر هذا العدد الكبير من العمائم الزرقاء قيل له إن بها كثيرا من النصارى ولهم خمس كنائس فهدمها في ساعة واحدة ورسم ألا يستخدم نصراني في ديوانه . انظر : المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ج٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م ، ج٢،ق١، ص٢٥٣.

[٣] ابن الحاج: المدخل، مج١، ج١، ص٢٤٢؛ آمال العمري: أزياء المرأة في العصر العثماني، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م ، ص١٣٦؛ ص٤٨؛ ماير: الملابس المملوكية، ص١٢٧ ؛ وراجع أيضاً فى هذا : حسن البطاوى : أهل العمامة ، ص ١٣٧ والتى تليها .

[٤] المدخل، مج١، ج١، ص٢٤٢؛ ماير: الملابس المملوكية، ص١٢٦.

فحاولت حظر هذه الممارسة بشكل بالغ الصرامة ، فكانت تصدر الأوامر ضد هؤلاء النساء بسلب ما عليهن من الكسوة وتقطيع ملابسهن بسبب التعمم بعمامة مثل الرجال[١] .

وتأكيداً على ما ذهبنا إليه من الرمزية الكبيرة للعمامة كلباس فى العصر المملوكى فإنها كانت تُشكل جزءاً من كبرياء الرجل وكرامته ومن النصوص التى تنقل لنا جانباً من هذه الصورة أن السلطان الأشرف قايتباي(٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٦م) سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م أصدر أوامره لخشقدم الأحمدي الطواشي في الوزارة، فأخذ يستعفي منها فلم يجب إلى ذلك، وأخذ يلطم بيديه على وجهه كالنساء ورمى بعمامته إلى الأرض بين يدي السلطان، وكرر الاستعفاء من ذلك وامتنع أشد الامتناع، وادعى الفقر والعجز عن ذلك فلم يقبل منه[٢].

---

[١]ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م ، ص١٨٣؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م ، ص٢٤٠؛ وفى الواقع فقد اتخذت السلطات المملوكية عدة جهود للقضاء على محاولة النساء التشبه بالرجال فى ارتداء العمائم وهو ما نجد صداه متناثراً فى طيات النصوص التاريخية ، فعلى سبيل المثال نجد أنه فى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م نودي بأن لا تلبس النساء العمائم، وقررت الدولة عقوبة لمن تخالف هذا بأن تُنهب وينهب ما عليها من كسوة وعمامة . انظر : ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص١٨٣ ؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢٦ ؛ شافع بن علي: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز عبدالله الخويطر، ط٢، الرياض ١٩٨٩م، ص١٤٣ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٣ ؛ واستمراراً فى هذه السياسات ففى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م أمر الأمير الشجاعي (٦٨٢هـ-٦٨٧هـ/١٢٨٣-١٢٨٨م)، (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) بإبطال عمائم النساء وتوعد على ذلك . انظر : البرزالي: المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م ، ج١، ق٢، ص٢٥٢، ٢٥٣ ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠م ، ج٥١، ص٥٥ ، وحقيقة فإن هذه القرارات لم تكن تخل من حماية ذكورية لخصوصية العمامة التى ارتبطت بشكل أساسى بالهوية الذكورية للرجل .

[٢] ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م ، ج٧، ص١٠٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٨م ،ج٣،ص٩٩.

واستمراراً فى الحديث عن رمزية العمامة ففى بعض الأحيان كان يتم إجبار البعض بارتداء عمامة اليهود ذات اللون الأصفر [١] كشكل من أشكال العقوبات والتشهير فى المجتمع ، أو كإحدى العقوبات السياسية التى فرضتها الدولة على المتآمرين على السلطة ، وتدلل لنا إحدى النصوص على هذا ففي سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م حبس الأمير بردبك[٢] أمير آخور[٣] وكان من

---

(١) حسبما يذكر ماير " أن أهمية العمامة تتضح عن بقية الملابس الأخرى عند الحديث عن العمائم الملونة التى كان يمكن بها تمييز المسيحيين واليهود عن المسلمين . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٨٩ والتى تليها ، وفى بعض الأحيان اتخذ المسيحيون واليهود عمائم أكثر ضخامة على قدر إمكانياتهم ولكن بعد ذلك حُرم عليهم ارتداء عمائم يطول شالها عن خمسة أزرع وكان هذا عام (٨٢٠هـ / ١٤١٧م) . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ١١٩ ، وحسب تعليق ماير فإن اللون بصفة عامة المميز لعمائم غير المسلمين كان يعتبر نوعاً من أنواع الامتهان المفروض . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ١١٩ .

(٢)الأمير بردبك: كان واحداً من مماليك الأشرف إينال، فرباه صغيراً وأعتقه وتزوج من ابنته الكبرى ، ولما تولى الأشرف إينال أمور السلطنة جعله دويداراً ثالثاً مع منحه إقطاع أمرة عشرة، وقد تدرج فى المناصب في دولة الظاهر إينال، وعلت كلمته وصار مقصداً في قضاء الحوائج، واستمر على هذا النحو حتى وفاة أستاذه الظاهر، وانقلبت أحواله بعد أن تولى ابنه المؤيد أحمد، حيث تمت مصادرته ونفي إلى مكة سنة ٨٦٦هـ /١٤٦١م، وعندما سمح له بالرجوع إلى القاهرة هجم عليه جماعة من العربان وقتلوه سنة ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م وتم دفنه في مكة المكرمة وقد ناهز الخمسين عاما، ووصفته النصوص بأنه كان أميراً عاقلاً متواضعاً محباً للفقراء والصالحين، وقد بني عدة جوامع هائلة في قناطر السباع وغزة ودمشق، غير أنه كان محباً لجمع الأموال. السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م ،ج٣،ص٤، ٥؛ابن شاهين الحنفي: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م، ج٢، ص٣٤١،٣٤٢؛ محمود رزق: موسوعة عصر سلاطين المماليك، ط٢، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٦٢م ، ج١، ق١، ص١٩٩.

(٣) أمير آخور: مصطلح فارسي مترجم يتكون من مقطعين أمير ، وآخور بالفارسية تعنى إسطبل، ويلتحق بذلك الآخورجي، ويعنى المشرف على علف وطعام الخيول، كما كان أمير آخور مسئولاً أيضاً عن كل ما فى الإصطبل وكان له أتباع منهم أمير آخور ثاني ، وغالباً ما يكون من أمراء الطبلخانة وأمراء العشرات. انظر : السحماوى: الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم المعروف باسم المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق أشرف محمد أنس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩م ، ج١،ص٣٨٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٥؛ ابن كنان: حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، ١٩٩١م ، ص١١٥؛ إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م ، ص٢١٢؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٢٠ .

الخواص المقربين لجانبك الفقيه، حيث نقل عنه ليشبك الدوادار أنه لما بلغه مرض السلطان الأشرف قايتباي قال لجانبك الفقيه إن مات السلطان فلا تغفل عن الأمر، وأنت أحق من غيرك، واتفقا معه على القيام معه إن وقع ذلك، فوشى به إلى الأمير يشبك وطلبه وسأله عن ما نقل عنه، فأنكره وحلف يمينا أنه لم يصدر ذلك منه، فأحضر إنسانا أكذبه في وجهه، فأمر الأمير يشبك ببطحه وضرب بين يديه ضرباً مبرحاً حتى أوشك على الهلاك، ثم أقامه وأحضر عمامة يهودي صفراء ، فقال هذا كفر بمحلفه كاذبا، ثم ألبس العمامة، وأمر بأن يخرج إلى دكة رأس نوبة[١] النقباء ، وإمعاناً فى إهانته ألبسوه أيضاً سلسلة بعنقه وقال له: أجلسه على الدكة حتى يأتيك ما تعتمده في أمره، واستمرت هذه الإهانات حتى شفع فيه فأمر بسجنه ثم نفاه إلى الواح[٢].

كما أن خطف العمامة كان يقلل من كرامة وهيبة الرجل وبمفهوم هذا العصر لم يكن من الممكن التعويض عن هذه الإهانة بأى شكل من الأشكال وهو ما يمكن أن نفهمه من النص التالى "جاء مرة رجل شريف أسود من صوفية تربة السلطان الأشرف قايتباي للشيخ جمال الدين الصافي، والشيخ أبو بكر الظاهري جابي الحرمين فقال يا سيدي خطفت عمامتي في هذه الليلة، فأعطاه الشيخ جديدا، فرماه في وجه الشيخ، وخرج غاضباً [٣] ، فالرجل الذى خُطفت عمامته لم يرضه التعويض عن الفعل الذى مس كرامته بمجرد الحصول على عمامة أخرى بديلة .

إن هذه الرمزية التى تمحورت حولها مشكلة الدراسة تتجلى فى العديد من الحوادث فلدينا على سبيل المثال هذا النزاع الذى حدث بين العلائي الحصني والأتابك أزبك[٤] سنة

---

[١]رأس نوبة: لفظ يُطلق على أمير قائم على الأمراء في الأمر والنهي والحكم عليهم، وفى العادة ما يكونون أربعة أمراء، أحدهم مقدم ألف وثلاثة طلبخاناه . انظر : القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م ، ج ٤، ص١٨؛ ابن كنان: حدائق الياسمين، ص١١٤، ١١٥ ، ص٢١٢؛ محمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص٨١.

[٢]ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل، ج٧، ص١٩٩.

[٣] ابن الزيات : الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية، مصر، ١٩٠٧م ، ج١ ، ص٢٠٤.

[٤] الأتابك أزبك: هو سيف الدين أزبك من ططخ الأشرفي ثم الظاهري، أتى به الخواجا ططخ من بلاد الجركس، واشتراه الأشرف برسباي، ثم أصبح من ضمن مماليك السلطان الظاهر جقمق وزوجه ابنته، ثم

٨٨٧هـ/١٤٨٢م أمر بإقامته من مجلسه بعد أن دزه ونهر فيه فتأخر فأمر بلكمه فأطاح عمامته عن رأسه ، ولكن استكمال العقاب لم يكن هيناً فضربه بعض منهم بالدبابيس على عمامته [١] ، وكأن هذا الفعل هو قمة الاستهانة وإنزال العقوبة المعنوية بالرجل .

هجمات وتحركات الغوغاء والعوام وخطف العمائم :

ارتبطت تحركات الشرائح الدنيا من العوام والغوغاء ارتباطاً وثيقاً بظاهرة خطف العمائم ، فقد ربطت النصوص بشكل دائم بين هذه التحركات وبين العديد من الممارسات السلبية فى المجتمع ومنها خطف عمائم الناس ، مشكلين ظاهرة من ظواهر التمرد محاولين التعبير عن وجودهم من خلالها ، أو كصيحة غضب ، أو ربما كان المقصود بها إهانة بعض الرموز ، ومن المهم أن نتفهم هنا أن التجمعات الشعبية دفعت العديد من عناصر العوام والغوغاء للقيام بمثل هذه الممارسات بأريحية محتمية فى الاحتشاد والصخب الجماعى ، وهذا منطقى بطبيعة الحال فحسبما حلل الخبراء فى سلوك الجماهير أن الفرد يتحرك بشكل واع ومقصود ، أما الجمهور فيتحرك دون وعى ، فالوعي فردي تحديداً أما اللاوعي فهو جماعي[٢] الإشكالية الأكبر فهي أننا نتعامل مع عناصر شعبية ، تلك العناصر التي استهواها العنف الاجتماعي الذي شكل انسياقاً وراء سلوك عفوي أكثر منه سياسياً مقصوداً، ولا سيما أن التجمع والاحتشاد يخلق حالة من التقليد ، إذ يبدأ كل فرد بتقليد الآخر في جو من الحساسية العالية ، فتغلب

أصبح أمير عشرة، وقد حبسه الأشرف إينال وأطلقه وأعاده إلى إمارته، وصار مقدم ألف في دولة الظاهر خشقدم، ثم تولى منصب حاجب حجاب، توفي مات ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م. ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١م ، ج٢، ص٣٤٦، ٣٤٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٧٠ – ٢٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٤١١، ٤١٢.

[١] ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل، ج٧، ص٣١٤.

(٢) غوستاف لوبون : سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ٣٢ .

العاطفة على التعقل، وتحت تأثير نفسي كبير يتغلب ذلك السلوك العاطفي المتشنج على السلوك المتعقل[١] .

ومهما يكن من أمر فتسعفنا النصوص التاريخية ببعض الأمثلة التى تعضد هذا الطرح ، فعلى سبيل المثال وتزامناً مع تقلد السلطان الصالح إسماعيل(٧٤٣-٧٤٦هـ / ١٣٤٢-١٣٥٤م) السلطنة وارتداؤه شعارها سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ، حدثت حادثة تتعلق بخطف عمامة أحد القضاة ، فأثناء مراسم تولى السلطان وجلوسه على تخت الملك حدث هجوم ضارى على القاضى حسام الدين الغورى[٢] ، وكان المُحرض على الهجوم طباخ المطبخ السلطانى ، الذى كان موتوراً من القاضى ، فلم ينس له أنه عندما تحاكم هو وزوجته عنده قبل ذلك أهانه القاضى المذكور ، ولذلك جاءت فرصته للنيل من القاضى وأخذ ثأره القديم ، وعليه فقد جمع بعض صبيان المطبخ جمعا من الأوباش ، فلما وجد الطباخ الفرصة هجم عليه بأوباشه ومد يده إلى الغورى من بين القضاة وأقاموه وحرقوا عمامته فى حلقة وقطعوا ثيابه وهم يصيحون يا قوصونى! ثم ضربوه بالنعال ضربا مبرحا، وقالوا له :يا كافر يا فاسق! فارتجت القلعة، وأقبل علم دار حتى خلصه منهم وهو يستغيث يا مسلمين! كيف يجرى هذا على قاض من قضاة المسلمين؟ فأخذ المماليك جماعة من تلك الأوباش وجروهم إلى الأمير أيدغمش فضربهم[٣] ، وربما نلمح الدلالة الهامة فى حرق عمامته وكأنها مركز هيبته وكرامته ، ولذلك فإن استهداف هذه العمامة كان أمراً موجعاً ، وهو ما يعضد ما ذهبنا له من طرح فى هذا الصدد .

---

(١) موفق سالم نوري: العامة والسلطة في بغداد ، دار الكتاب ، الأردن ، ٢٠٠٥ ، ص ٥٠ ، ص ١٧٣ ؛ محمد فياض : التشيع الشعبى فى العراق ، روافد للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠١٦ ، ص٢٥ .

(٢) القاضي حسام الدين حسن الغوري: قاضي قضاة حسام الدين حسن بن محمد ، جاء إلى القاهرة صحبة نجم الدين محمود بن شيروين وزير بغداد عام (٧٣٨هـ/١٣٣٨م)، ثم خلع عليه وعمل كقاضي لقضاة الحنفية بديلاً عن برهان الدين بن إبراهيم بن عبد الحق، ويروى أن سبب انقلاب السلطان أبو بكر بن الناصر محمد عليه هو بسبب ذكره لمساوئ القبط بفحش، وحسب الروايات أيضاً أنه كان دائم الإساءة للأمراء والعامة، مات سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩م). انظر : المقريزي: المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م ، ج٣، ص٤٥٠-٤٥٣.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٦٠.

ومن الظواهر العجيبة أن السلطة استعانت فى بعض الأحيان بالغوغاء لإنفاذ بعض قراراتها . فقد أمر الأمير سودون القاضي حاجب الحجاب[١] ناظر جامع الأزهر سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م بإخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الإقامة فيه وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق وخزائن وكراسي المصاحف[٢]، ويبدو أن هذا القرار كان شديد الوطأة فقد حل بالفقراء والمجاورين بلاء كبير حيث تشتت شملهم وتعذرت الأماكن عليهم، فساروا في القرى ، وفقد من الجامع أكثر ما كان فيه من تلاوة القرآن ودراسة العلم وذكر الله، ولم يكتف بذلك بل أشاع أن أناسا يبيتون بالجامع ويفعلون فيه منكرات، وكان عدد كبير من الناس قد اعتادوا المبيت في الجامع ما بين تاجر وفقيه وجندي وغيرهم ، بعضهم بغرض التبرك، وبعضهم ملتجئاً إلى المسجد حيث لا مأوى له ، ومنهم من كان يستروح بمبيته هناك خصوصاً في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان، فإنه يمتلئ صحنه وأكثر رواقاته، على أية حال فقد أغار الأمير سودون على الجامع وقبض على جماعة وضربهم في الجامع، وما يعنينا هنا أنه استعان لتنفيذ قراره بالغلمان وغوغاء العامة ، وأعطى الضوء الأخضر لكل من يريد النهب ، فحل بمن كان في

---

[١] حاجب الحجاب: وظيفة مشتقة من وظيفة الحاجب، ومعناها كبير الحجاب ، ومن اختصاصاته النظر فى المخاصمات بين الأجناد واختلافهم في بعض الأمور ومنها أمور الإقطاعات، ومن اختصاصاته أيضاً النظر فى أمور صندوق المال الذي يُجمع من موارد متعددة ليتم توزيعه على الأرامل والفقراء. السبكى: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م ، ص٤٠، ٤١؛ محاسن الوقاد: الحجابة زمن سلاطين المماليك، بحث منشور ضمن كتاب مصر في العصر المملوكي (دراسات حضارية)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م ، ص٢٠١.

[٢] ضم المسجد الأزهر منذ إنشائه عدداً من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وقد بلغ عددهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً صنفتهم المصادر ما بين عجم وزيالعة، وكذلك من أهل ريف مصر والمغاربة، هذا وكان لكل طائفة رواق يعرف بإسمهم ، وبه حركة علمية ضخمة شملت مختلف العلوم ، فضلاً عن مجالس الوعظ وحلقات الذكر، ومن الجدير بالذكر فقد كان أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر والتبرعات والأعطيات من الذهب والفضة والفلوس وذلك بغرض إعانة للمجاورين فيه على أمور العبادة ، فضلاً عما كان يُحمل إليهم من مختلف أنواع الأطعمة والخبز والحلوى وخصوصاً فى المواسم. انظر : المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م ،ج٣، ص٢٢١ .

الجامع أنواع البلاء، ووقع فيهم النهب، فأخذت فرشهم ، ولم ينس الغوغاء شغفهم القديم فقاموا بخطف عمائم المجاورين ومارسوا أبشع ممارسات السلب والنهب فى المسجد [١].

وكما أسلفنا فقد أثارت حالة التجمعات والاحتشاد دوافع غريزية لدى الغوغاء للقيام بممارسات صاخبة فى المجتمع من السلب والنهب والخطف وترويع الناس ، وتنقل لنا سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م دليلاً واضحاً على هذا فقد وردت عدة مراكب تحمل نحو ألفي إردب[٢] قمح فركب الأمير إينال باي ليفرقها مع المحتسب، فاحتشد عدد كبير من الناس آملين فى الحصول على قليل من القمح ، ولكن الأمير إينال طرد الناس عن القمح خشية النهب ، لكنهم لم يتراجعوا بل زاد زحامهم واحتشادهم ، مما دفعه لإعطاء الأوامر بالتعامل مع هذا التجمع بالقوة ، فنتج عن هذا موت رجل فى الزحام ، وغرق امرأة، وأمر الأمير إينال بصلب أربعة رجال من المحتشدين، وضرب رجلين ضربا مبرحا، وما يهمنا فى هذه الحادثة أن خطف العمائم كان حاضراً فى هذه الحالة الصاخبة ، وكأنها إحدى ممارسات التمرد من العناصر الشعبية على ما حدث ، وهو ما نقله ابن حجر بقوله " ونهب الناس في هذا الحادثة من العمائم والأردية شيئاً كثيراً "[٣] .

هذا وقد استخدم العوام ممارسة خطف العمائم كسلاح شعبى واجهوا به خصومهم ، ونالوا به من كرامتهم ، وتطالعنا سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م بمثال واضح على هذه القضية ، فقد ثارت العامة وانضم إليهم الكثير من المماليك معلنين تمردهم على أبي الخير النحاس ، وهو الرجل الذى استطاع أن يتحرر من فقره وانتمائه للطبقة الدنيا إلى أوساط الطبقة الحاكمة ودوائر صنع القرار نتيجة تقربه من السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ /١٤٣٨-١٤٥٣م) حتى تولى العديد من المناصب التنفيذية فى الدولة ، ولكنه تنكر لأبناء شريحته الدنيا ، وصار شديداً عليهم ، وبدأ فى التكبر بل وتمعن فى إذلال الناس ، وهنا لم يستطع العوام تجاوز الأمر ، ولذلك قرروا أن يتحركوا للنيل من كرامته ، فتجمعوا عليه بالضرب والسب ، وعايروه بفقره وما كان به

---

[١] المقريزي:الخطط المقريزية،ج٣، ص٢٢١ .

[٢] الإردب: وحدة تقدير وهو مكيال مصري ضخم يتكون من ٦ ويبات، كل ويبة ٨ أقداح كبيرة أو١٦ قدحاً صغيراً. انظر : القلقشندي: صبح الاعشي، ج٣، ص ٤٥٥؛ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ط٥، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٣٠ – ٣٣٢ .

[٣] إنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م ، ج٣، ص٨٥ .

من الذل والهوان قبل وصوله للسلطان الظاهر جقمق ، ولم يكتفوا بذلك بل مارسوا هوايتهم الأثيرة فخطفوا عمامته وسقط من على فرسه مكشوف الرأس، وقد أخذ أحد العبيد عمامته، وكأنه نال صيداً ثميناً ، وعلى الجانب الآخر فقد قام أبو الخير النحاس سريعاً فاراً بنفسه ونجا من بين أيديهم بشق الأنفس وهرب إلى إحدى بيوت الأمراء مختبئا به حتى جاء الليل وتوجه إلى داره خائفا مرعوبا، ، من هجوم العوام عليه مرة أخرى ، وانزعج السلطان من إهانة رجله المُقرب، ومن ثم فقد أراد تعويضه تعويضاً معنوياً لائقاً ، فخلع عليه السلطان الظاهر جقمق بعد أيام كاملية[١] حمراء بمقلب سمور[٢] رغم ذلك فقد نزل إلى داره خائفاً مرعوباً لكنه شق القاهرة إلا أنه لم يسلم من سب وإهانة العامة[٣]، وهنا تتجلى رمزية العمامة بامتياز فيشير أحد المعاصرين أنه ضربت المماليك الأجلاب أبا الخير النحاس وأخذوا عمامته من على رأسه، فتزايد ما كان به من الضعف، فإنه كان مستضعفا قبل ذلك بمدة وأخذ أمره يومئذ في انحطاط، ولزم الفراش إلى أن مات[٤] ، ورغم أنه كان قريباً من السلطة حائزاً لجوائزها وعطاياها ، إلا أنه لم يستطع تجاوز تلك الأزمة المعنوية التى قضت عليه .

يمكننا أيضاً أن نؤكد من خلال استقراء النصوص المعاصرة أن خطف العمامة كان فى كثير من الأحيان تعبيراً عن أوجاع العوام ، أو كصرخة من صرخاتهم ، وانعكاساً لحالة التمرد

---

[١]كاملية: هى نوع من الملابس الخارجية مثل العباءة، وهو ثوب ضيق يتم ارتداؤه فوق القباء، وبه فتحة في منتصف الظهر حتى أسفل حافية الذيل وكان يُبطن بفرو سمور ، كما كانت تصمم له قابلات من فرو السمور أيضا وفى هذه الحالة يسمى كاملية بفرو سمور. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٧٦؛ إبراهيم ماضي: زى أمراء المماليك في مصر والشام، تاريخ المصريين ٢٨١، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٩٤، هامش١٥٠؛ وليم ماير: الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٥.

[٢]سمور: نوع من أنواع الفراء يتخذ من حيوان بري يشبه السنور، وكان يُتخذ من جلوده فراء ثمينة ، كما كان يتميز بلينه وخفته وحسنه . انظر : رجب عبد الجواد: المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الأفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م ، ص٢٤١.

[٣] ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠م ، ص١٦٧ – ١٦٨ ؛ النجوم الزاهرة، ج١٥ ، ص٣٩٩ ، ٤٠٠ ؛ ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل،ج٥، ص٢٩١،ج٦، ص٦٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢ ،ص٢٧٥.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٣٣.

المدفوعة بالأوجاع الاقتصادية والاجتماعية ، وكالعادة تسعفنا النصوص التاريخية بدليل واضح على هذا الأمر ففى سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م توجهت طائفة من الغلمان والعبيد نحو القلعة لأخذ اللحم والخبز ، ولكنهم لم يجدوا ضالتهم ، وهنا أعلنوا تمردهم فنزلوا من موضعهم بصخب واحتشاد وتجمهر ، ووصفت المصادر تحركاتهم بأنهم " كالغائرين على القاهرة ولهم صياح وصراخ ارتجت منه الشوارع، وصاروا ينهبون ما وجدوه بالحوانيت " ، وبالطبع فإن الصورة لن تكتمل بدون ممارسة الجانب الرمزى فى تمردهم ، فخطفوا عمائم الناس وشدودهم، وشقوا القاهرة وهم على ذلك حتى وصلوا قريبا من باب الفتوح[١] ، ولم يجدوا من يردهم ولا يمنعهم عن ذلك، بل إنهم أهانوا من قابلوه من رجال الدولة ، ومن سوء المصادفة أن الوزير كان قد اختفى في هذا اليوم فتعطل حمل اللحم بسبب ذلك، ثم ظهر بعد ذلك[٢] .

وكما سبق وأن ذكرنا فقد كانت السلطة فى بعض الأحيان تلجأ إلى بعض العناصر الخارجة عن السياق العام للدولة لأجل حسم صراعاتها أو تحقيق مصالح شخصية ، وهو ما نجده فى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م حيث أحضر الأمير آقبردي[٣] صحبته عرباناً من بني وائل وعربان غزالة لقتال الأتابك قانصوه المحمدي[٤] خال السلطان الناصر محمد بن قايتباي

---

[١] باب الفتوح: أحد أبواب القاهرة التى وضعها جوهر الصقلي فى العصر الفاطمى ، ولكن تغير موضع في العصر المملوكي وبقى منه عقده وعضادته اليسرى وعليه كتابات من الخط الكوفي، وهو يرأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي. للمزيد انظر. المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص١٠١.

[٢] السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م ،ج٢،ص١٩٧؛ ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٥، ص٤٤٥ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص٣٣٢.

[٣] الأمير أقبردي: أقبردي الأشرفي نسبة إلى السلطان الأشرف قايتباي فقد كان ابن عمه ، وتولى عدة مناصب منها الخاصكية وأمير عشرة ، ثم تولى منصب الدويدار بعد وفاة الأمير يشبك من مهدي، وناسب السلطان الأشرف قايتباي ، وتقلد بعد ذلك منصب الوزارة وأمير السرحة للوجه القبلي ذات مرة لجلب الأموال، ويروى أنه كان محباً لعمل الخير وكثير الصدقات. انظر : السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٣١٥.

[٤] قانصوه المحمدي: هو الملك الظاهر أبو سعيد ، اشتراه الأمير قانصوه الألفي مع مجموعة من المماليك قدمهم للسطان الأشرف قايتباي سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، ثم ظهر بعد ذلك أنه أخو سريته "أصل باي الجركسية " أم ابنه الناصر محمد ولذلك أكرمه السلطان الأشرف قايتباى ، وجعله من جملة المماليك الجمدارية، واستمر على ذلك حتى تولى السلطان الناصر محمد ابن أخته وصار يُسمي بلقب "خال السطان"، وظل يترقى في

(الأولي٩٠١-٩٠٢هـ/١٤٩٦-١٤٩٧م)،(الثانية ٩٠٢-٩٠٤هـ / ١٤٩٧-١٤٩٨م) فأرسل الأخير لهم عرباناً من بني حرام ، وهنا حدث الصدام بين الفريقين ، وتطور الأمر للقتال بينهم ، وحدث منهم غاية الضرر ، وبالطبع فقد كان خطف العمائم حاضراً بقوة فى مناسبة مثل هذه وهو ما ينقله ابن إياس بقوله " وصاروا يعرون الناس ويخطفون العمائم بالمطرية وبولاق ومصر العتيقة والقرافة ونهبوا الترب ومزارات آل البيت، ويشير إبن اياس في ذلك أن ذلك كان سبباً في هزيمة الأمير آقبردي[١] .

إذن فقد رافقت تحركات العوام المدفوعة إما بأوجاع أو أطماع أو حالة هيستيرية من الاحتشاد تلك الممارسة الرمزية المتمردة وهى خطف العمائم ، كشكل من أشكال رمزية المعارضة فى مصر فى العصر المملوكى .

الصدامات الاجتماعية والاشتباكات وخطف العمائم :

كان التصادم بين الناس والمشاجرات مناسبة أساسية وبارزة لظاهرة خطف العمائم ، فمعظم النصوص التى أرخت لمثل هذه الصدامات أردفت الحديث عن خطف العمائم كممارسة لصيقة وحتمية وضرورية لهذه الصدامات ، والأمثلة عديدة على هذا الطرح ، ففى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م اختصم فيها مسلم وفرنجي وضربه بالمداس بالإسكندرية، فركب متولي الثغر الكركي وأغلق باب البحر قبل المغرب والناس في الفرجة، فمشى أعيان البلد إليه فأمر بفتح الباب بعد هوي من الليل، وازدحم الخلق وسلت السيوف وجرح جماعة، هذا المشهد المعقد كان لابد أن تظهر فيه تلك الظاهرة موضوع الدراسة فقال النص " وخُطِفت عمائم " ، ومات عشرة أشخاص من الزحمة، ثم جاء الوالي لصلاة الجمعة ، ولكن حالة التمرد التى بدأت بخطف العمائم تطورت بشكل كبير حيث رجمته الغوغاء فدخل داره واستمر الرجم وجمعوا قشًّا وأحرقوا

المناصب العليا وعظم شأنه لحد كبير وخصوصاً بعد وقوفه بجوار السلطان الناصر ضد قانصوة خمسمائة حتى انتصروا عليه، رغم أنه تواطأ مع بعض الأمراء على قتله بعد ذلك، هذا وقد تقلد السلطنة بعد مقتل الناصر محمد سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، وخلع سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م بعد هزيمته من بعض الأمراء الذين خرجوا عليه. انظر : ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٣٦،٤٣٧؛ محمود رزق: موسوعه عصر سلاطين المماليك، ج١، ق١، ص٥٦، ٥٧.

[١] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٣ ، ص٣٦٥ .

باب السلطان ويعرف بباب اليهود، وزادت الأحداث تعقيداً حيث أخرجوا المحبوسين ونهبوا دارين لأتباع الوالي ، وترامت الأنباء إلى السلطان فتذمر السلطان وانزعج بشكل بالغ ، وأمر ببذل السيف في البلد وبهدمه، ثم جهز قوة عسكرية كبيرة ، وأمر بمصادرة عدد كبير ، وامتدت الاشتباكات إلى المسجد ويعبر النص عن المشهد غير ناسٍ الظاهرة موضوع الدراسة بقوله " فجرت في الجامع خبطة وخُطِفت العمائم "، ويشير المقريزي في هذه الحادثة أن الناس تسارعوا إلى دورهم من الخوف، فذهبت عدة عمائم واشتد الخوف مدة عشرين يوما، .. وبلغت الجباية من الناس ما ينيف على مائتين وستين ألف دينار، فكانت هذه من المحن العظيمة، والحوادث الشنيعة .[١]

تعود النصوص مرة أخرى لترصد لنا نماذج من هذه الاشتباكات ففى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م وقعت فتنة مهولة ببولاق حتى كادت أن تخربها وسبب ذلك أن جماعة من الجوابر الذين ببولاق وقع بينهم وبين جماعة من النفر إشكال كبير بسبب ضائع ضاع لهم فتعصب الجوابر على هؤلاء الناس المسؤولين عما ألم بالجوابر وضربوهم وجرحوا منهم جماعة واستطاعوا أن يستخلصوا منهم الضائع، ولكن المجموعة الأخرى لم ترضَ بما ألم بهم من ضرب واعتداء فاجتمع السواد الأعظم منهم واحتشدوا متوجهين إلى بولاق، ووثبوا على الجوابر ونهبوا ما في مراكبهم من الغلال ونهبوا دكاكين بولاق ، وما يعنينا هنا أن خطف العمائم كانت إحدى أبرز مظاهر هذا الاعتداء وحسب النص " فخطفوا عمائم الناس" واستمرت هذه الاشتباكات بين الطرفين " [٢].

اللصوص وسرقة العمائم

---

(١) المقريزى : الخطط ،ج١، ص٤٩٢، ٤٩٣ .

(٢)ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٢٢ ، ١٢٣، حسبما يذكر ابن إياس فقد تزايد الأمر من النفر ثار عليهم الجوابر الذين ببولاق فقتل منهم كثيرا واستمرت ثلاثة أيام متوالية فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وكان الجوابر في حماية الأتابك قرقماس والنفر في حماية قاني باي قرا أمير آخور كبير فتعصب كل منهما جماعته فتحير بينهما السلطان الأشرف قانصوه وراح على الناس ما نُهب لهم في هذه الحركة . انظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٢٢ ، ١٢٣ .

كما مر بنا فقد رافقت ظاهرة خطف العمائم كافة التحركات الشعبية المتمردة ، وتحركات الغوغاء والشجار والتصادمات ، ومن الطبيعى أن يكون لجماعات اللصوص دور فى هذا الإطار ، وحسب تحليلات علماء الاجتماع فإن السرقة هى السلوك الجانح الأكثر شيوعاً فى أنماط اجتماعية معينة [١] ويمكننا أن نصنف العصر المملوكى فى تلك الفترة كواحد من هذه الأنماط الاجتماعية ، على أية حال فقد نقلت النصوص التاريخية العديد من الأمثلة على موقف اللصوص من خطف العمائم وسرقتها ومدى حرص الناس على العمائم خوفاً من اللصوص ، فمن كان يتوضأ ويترك عمامته فهى معرضة للسرقة [٢] ، ومن المثير أن مجرد سقوط العمامة من على رأس شخص أو حتى لو أوشكت على السقوط فإن هذا يثير مخاوف صاحبها أو مرافقيه من أن يتم سرقتها وكأنها الشىء الثمين الذى يحرص كل فرد فى هذه الفترة فى الحفاظ عليه [٣] .

ومهما يكن من أمر فقد كانت سرقة العمائم تتزامن مع الأحداث الصاخبة ومع التجمعات التى يمارس فيها العوام ولع المشاهدة ، وبالتالى فالمناسبات التى تحتشد فيها الحشود بيئة مناسبة لمثل هذه التصرفات ، فنجد على سبيل المثال أنه أثناء القبض على الوزير ابن زنبور[٤] سنة

---

(١) مصطفى حجازى : التخلف الاجتماعى ، ص ١٧٤ .

[٢] ومثال على ذلك كان السراج عمر أبو حفص الكناني يتوضأ كثيرا على الفسقية بالمدرسة البرقوقية ويضع عمامته إلى جانبه وكان ينسى عمامته ويصلي بدونها ويذهب بدونها حتى تحمل إليه وممن حملها إليه الشمس بن عمران الغزي المقرئ خوفا من سرقتها. انظر : السخاوي: الضوء اللامع ، ج٦، ص١١٠.

[٣]على سبيل المثال تشير إحدى حوادث سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م أنه أتى من مصر إلى دمشق بصبي صغير من أولاد النائب فخرج لملاقاته أخ له من أبيه وخرج معه لذلك الحاجب الكبير ودوادار النائب والكثير من أرباب الدولة، وكادت عمامته أن تسقط عند مصلى العيدين، فأصلحها له أخوه خوفا من سرقتها بعد أن وقف، ووقف عسكر أبيه بحضور الحاجب وبقية الأمراء . انظر : ابن طولون: مفاكهة الخلان ، ق١، ص٢١٣.

[٤] الوزير ابن زنبور: الصاحب علاء الدين عبد الله بن تاج الدين ، ويُعرف أيضاً بابن زنبور، تقلب في وظائف الدولة حيث تولى منصب الوزارة وناظر الجيوش، وكذلك ناظر الخواص، حتى زادت أمواله وكبر أمره الأمر الذى كان سبباً في نكبته، ومن الجدير بالذكر فقد غضب عليه السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون وقام بمصادرة كافة ممتلكاته وكانت ضخمة ، ثم أصدر قراراً بنفيه إلى قوص، وفى قوص تم قتله سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م ودفن بها. انظر : المقريزي: المقفى الكبير، ج٤، ص ٤٢٦-٤٣٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٤٤-٥٤٧ .

٧٥٢هـ/١٣٥١م ، كان هذا الحدث بمثابة الحدث الجلل وانعكس هذا على النصوص التى قالت " وارتجت القلعة وخرجت الكتاب"، وهنا كان لابد من تدخل من السلطة ممثلة آنذاك فى الأمير صرغتمش[١] والذى صدرت أوامره لمماليكه بالقبض على أعوان ابن زنبور ، وهنا سنحت الفرصة لطرف ثالث بالتدخل هذا الطرف الثالث تمثل فى بعض العناصر التى وصفتها النصوص بالطماعة قائلة " واختلطت الطماعة بمماليك الأمير صرغتمش"، وبدأوا فى الإمساك بأتباع ابن زنبور واصطحابهم لأماكن نائية لسرقة ملابسهم وحليهم ، وبالطبع لم تسلم العمائم من هذه الأفعال فسلبت العديد من العمائم وهو ما نقله ابن تغرى بردى بقوله " وفي هذه الحادثة سرق من الفرجيات والعمائم والمناديل شيئاً كثيراً "[٢].

وكما ذكرنا سابقاً فقد كان الزحام وما يرافقه من مناسبات صاخبة توقيتاً مثالياً لخطف وسرقة العمائم ، وتشى لنا أحداث سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م بهذا الأمر ، فقد حدثت بالقاهرة ضجة عظيمة وقت صلاة الجمعة بسبب مملوكين تضاربا فشهرا السيوف، وعلى الفور انتشرت الشائعات على ألسنة العوام أن الأمراء اختلفوا وركبوا ، ساهمت هذه الشائعات فى حالة من الجدل صاحبتها ردود أفعال مضطربة من العوام ، فهرب الناس من الجوامع ، بل إن منهم من لم يُكمل صلاته ، وأثناء حالة الهرج والزحام والتخبط هذه كان المتربصون بالعمائم على أتم

---

[١] الأمير صرغتمش: الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصري، أتى به ابن الصواف التاجر فاشتراه السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمبلغ ثمانين ألف درهم فصار أحد مماليك الناصر ، ومن الجدير بالذكر فهو صاحب المدرسة الموجودة بشارع صليب، وعظم شأنه في عهد أبناء الناصر، وخصوصاً في دولة السلطان الصالح صالح وأخيه السلطان الناصر حسن، ولكن السلطان الناصر حسن أمر بالقبض عليه وسجنه فى مدينة الإسكندرية سنة ٧٥٩هـ/١٣٥٧م وكان هذا أخر العهد به، قُتل بهذا العام. انظر: ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م ، ج٢، ص٢٠٦، ٢٠٧؛ محاسن الوقاد: صرغتمش الناصري "الأمير الحاكم، دراسة في السيرة الذاتية (٧٣٧هـ -٧٥٩هـ / ١٣٣٦ – ١٣٥٧م)، بحث ضمن كتاب مصر في العصر المملوكي(دراسات حضارية)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م ، ص٣٦١ – ٣٨١.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٧٨ ، ٢٧٩.

الاستعداد ، وبالفعل سُرق في هذا الزحام عدة عمائم ، ورافق هذا أيضاً ممارسات أخرى من السرقة حيث خطفوا الخبز من الحوانيت والأفران [١].

وتستمر الظاهرة فى الحدوث جنباً إلى جنب مع ممارسات اللصوص سواء كانت ممارسات سرقة عشوائية مثل التى تنجم عن التجمعات ، أو ممارسات محترفة قامت بها جماعات ممن امتهنوا مهنة اللصوصية ، فنجد على سبيل المثال ما حدث سنة ٨٩٠هـ/١٤٨٥م عندما هجم المنسر[٢] على الناس وهم في زيارة الإمام الليث بن سعد[٣] وأخذوا عدة أزر للنساء ، ولم ينسوا بالطبع سرقة عمائم الرجال ، ولم تتوقف ممارساتهم عند هذا الحد بل إنهم ضربوا شخصا حتى كاد أن يهلك ، وزادت أفعالهم حدة بأن قاموا بتعرية الناس على طول الطريق حتى وصلوا إلى باب القرافة، كما هجموا على ضريح أحد الصالحين وأخذوا ستائره ، وقتلوا أحد خدامه وقد نتج عن هذا أن تم القبض على عدة منهم ثم تتبعوا ذلك حتى حصل منهم على جماعة وضربوا بالمقارع وسُجنوا[٤] .

ومن الغريب أن اللص الذى كان يتصدى لسرقة العمائم لم تصرفه أى مقاومة من قبل المعتدى عليه ، بل إن أى مقاومة كان يواجهها اللص بعناد وتطرف وقد يصل الأمر إلى جريمة أبشع مثل القتل ، وهو ما حدث سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م عندما خرج بعض اللصوص على محمد أبو اليمن بن الشمس بن البرقي[٥] ، واعتدى عليه لص منهم بغرض سرقة عمامته ، وبالفعل

---

[١] ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر، ج٢، ص١٠٦.

[٢]المنسر: مسمى من المسميات التى أُطلقت على اللصوص وهم عصابات تقوم بالسرقة أو قطع الطرق. انظر : ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل، ج٧، ص٤١٩،هامش٤.

[٣]الإمام الليث بن سعد: أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن بن عقبة عالم مصر وفقيهها ، ولد سنة ٩٤هـ/٧١٣م في قرية تسمى قلقشندة ، هذا وقد أثنى عليه الكثير مثل الإمام أنس بن مالك والإمام الشافعي وغيرهم ، ومن مآثره أنه كان كثير البر والصدقات على الفقراء والأرامل، مات سنة ١٧٥هـ/٧٩١م. انظر : ابن الزيات: الكواكب السيارة، ص٩٨، ٩٩.

[٤] ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل، ج٧ ، ص٤١٩ ، ٤٢٠ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣ ، ص٢١٨.

[٥] محمد أبو اليمن بن الشمس بن البرقي : محمد بن محمد بن علي بن محمد بن محمد بن حسين بن علي أمين الدين أبو اليمن بن الشمس بن البرقي الحنفي، ولد فى سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م حفظ القرآن ولازم دروس البدر ابن عبيد الله في الفقه وغيره ، ولازم يشبك الجمالي الزردكاش في ذلك ، ووصفته النصوص بأنه حمدت طريقته وسياسته وتودده واحتماله ولم يزل على طريقته حتى وفاته ، وصلي عليه الناس بعد صلاة الجمعة فى المسجد

أخذ عمامته بعنف ، فانقطع لذلك أياما والدماء تنزف من رأسه حتى مات ، ويصف السخاوى موته بأنه مات شهيداً [١] .

ولم تقف تحركات المنسر وممارساتهم فى أعمال السرقة ، ففى سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م هجم المنسر على سكان المسطاحي التي بجوار قنطرة الحاجب فقتلوا واحدا من الخفراء ونهبوا عدة بيوت ، وامتدت تحركاتهم حتى دخلوا إلى الجسر الذي بجوار بركة الرطلي[٢] ، وخطفوا عدة عمائم وشدود من سكانه، ولم تكن أعداد هذه الجماعة من المنسر قليلة بل بلغ عددها أكثر من ستين رجلا ، متسلحين ببعض الأسلحة مثل القسى والنشاب ، فأخذ والي القاهرة بعض المماليك وساق خلف المنسر فظفر منهم على ثمانية وقبض عليهم وهرب الباقون ثم عرضهم على السلطان الأشرف قانصوه الغوري(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) فرسم بشنقهم على قنطرة الحاجب فسمروهم على جمال وطافوا بهم في القاهرة وشنق بعضهم ووسط البعض الآخر ، ويبدو أن القبض على هؤلاء المنسر كان حدثاً سعيداً لدى السلطان ، ولذلك كافأ والى القاهرة كونه تمكن من القبض عليهم فى ذات الليلة ، ومنحه خلعه ، ويبدو أن ما قام به والى القاهرة كان أمراً استثنائياً ، وهو ما عبر عنه ابن إياس بقوله " حيث عد ذلك من النودار " [٣] .

الأزهر ثم بسبيل المؤمني ، ودفن بتربتهم بالقرب من ضريح الإمام الشافعي ، ومن الجدير بالذكر فقد كان له مشهد حافل وكثر الثناء عليه. انظر : السخاوي: الضوء اللامع ، ج٩، ص١٦١.

[١] الضوء اللامع ، ج٩، ص١٦١.

[٢] بركة الرطلي: تقع في الجهة البحرية غرب جامع الظاهر ، وقد كانت من جملة أرض الطبالة ، عرفت فى البداية باسم بركة الطوابين حيث كان يعمل فيها الطوب أثناء حفر السلطان الناصر محمد الخليج الناصري، ومن الجدير بالذكر فقد كان في شرق هذه البركة زاوية بها شخص يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة ولذلك سماها الناس بركة الرطلي وذلك نسبة لصانع الأرطال، وبعد حفر الخليج ودخول المياه إلي البركة حكره الناس وبنوا فوقه البيوت، ثم صارت بعد ذلك متنزهاً لعوام الناس. للمزيد انظر. المقدسي: المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، تحقيق محمد الششتاوي، دار الأفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٢- ٢٦؛ عبد الرحمن زكي: موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، ط٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٩ .

[٣] بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣٩، ٤٠.

المماليك الجلبان وخطف العمائم :

مثلما ارتبطت ظاهرة خطف العمائم بتحركات الغوغاء واللصوص والصدامات وأعمال الشجار فقد ارتبطت أيضاً بشكل جلى بتحركات وممارسات المماليك الجلبان[١] فقد اعتادوا على خطف العمائم مرارا وتكرارا ، وفى واقع الأمر فإن الدراسة فى سياقها ستكشف عن الدور الكبير الذى قام به المماليك الجلبان فى هذه الظاهرة ، وكما سيتكشف أيضاً أن المماليك الجلبان تعاملوا بفوقية وإهانة للمجتمع المصرى ، كما كانت هناك كراهية واضحة من المصريين تجاههم ، وهنا يمكن القول أن المماليك الجلبان شكلوا جيتو اجتماعى منغلق يكره الآخر ، ويحاول تبخيسه وتوجيه الإهانة والعنف ضده ، وحسب بعض الطروحات فإن مفاهيم بعض الجماعات المنغلقة التي تتحول إلى أصنام فكرية تزيد حالة الجفوة المجتمعية والتخاصم الحياتي مع الفريق الآخر الذي يتحول بامتياز إلى الآخر بكل ما عليه من مساوئ وصولاً لحالة التباغض الحقيقي [٢] .

ومهما يكن من أمر فإن النصوص التاريخية المعاصرة تفيض بمثل هذه الإشارات ، منها على سبيل المثال ما حدث سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م عندما أُدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر ، وقد تزامن هذا مع ممارسات صاخبة من المماليك الجلبان ، وصفتها النصوص بأنها "

---

[١]المماليك الجلبان: أو الأجلاب، ومن لفظها الجلب وهو ما جُلب أو مما سيق من موضع إلى آخر، وقد استخدم هذا المصطلح للدلالة على فئة المماليك الذين كان يتم جلبهم أو يشترون من أسواق النخاسة وخصوصاً من مناطق القوقاز وأسيا الصغرى وكذلك شواطيء البحر الأسود، ومن الجدير بالذكر ففى عصر المماليك كانوا يؤلفون طائفة من المماليك السلطانية ، وكانت السمة الأساسية لهم القيام بالشغب والفوضى وخلق الاضطراب وفى العديد من الأحيان تعذر كبح جماحهم. انظر : ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٠، هامش١؛ ماجدة الغمري: قلعة الجبل في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م ، ص٨٢، هامش٤.

(٢) محمد فياض : التشيع الشعبى فى العراق ، ص ٢٣ .

بلاء كثير " من صفع أقفية المارة في الشارع ومن حرق لحاهم بالنار وخطف عمائمهم[١] ، كشكل من أشكال الإهانات البالغة الموجهة ضد الناس .

لقد كان واضحاً أن هناك حالة من الكراهية المتبادلة بين المصريين وبين عناصر الجلبان الذين سكنوا فى الطباق ، ويبدو أن هؤلاء الجلبان قد شعروا بهذه الكراهية لذلك لم يدخروا جهداً فى إلحاق الأذى المادى والمعنوى بالناس فى أى مناسبة تسمح لهم بهذا ، فنجد أنه فى سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م تشير النصوص أن مماليك السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م) نزل كثير منهم في أول الليل وأخذوا في نهب الناس وخطف النساء والصبيان للفساد، هذه الأحداث لم تمر مرور الكرام بل كان لها رد فعل ليس من المصريين بل من العبيد السود حيث تجمهر عدد كبير منهم وقاتلوا المماليك، فقتل من العبيد خمسة وجرح عدة من المماليك ، وتصور النصوص هذه الحادثة بقولها " وخُطف من العمائم وأخذ من الأمتعة شىء كثير "[٢]، ثم أخذت المماليك تتتبع العبيد فقتلوا منهم جماعة، وقد كفت العبيد أيديهم عن قتالهم خوفا من السلطنة، واختفى كثير من العبيد ، أمام هذه التصرفات كان لابد لقرارات حاسمة من السلطة حيث رسم السلطان بمنع المماليك من النزول من الأطباق إلى القاهرة إلا لضرورة[٣]

وفي ذات المنحى صدر المرسوم السلطاني للأمير خشقدم مقدم المماليك السلطانية[٤] بمنع نزول المماليك من النزول من الطباق إلى القاهرة إلا لضرورة ، ومن المثير للسخرية أن

---

[١]المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطعبة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م ، ج٤،ق٢، ص١٠٠٦ ؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م ، ج٣ ، ص٤٠٠.

[٢]المقريزي: السلوك، ج٤،ق٢، ص١٠٢٦ ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥ ، ص٩٠ ؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣ ، ص٤٠٠؛ ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٥، ص١٧ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص١٧٩.

[٣]ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥ ، ص٩٠؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣ ، ص٤٠٠.

[٤]مقدم المماليك السلطانية: هو المتحدث في أمور المماليك السلطانية والحكم بينهم، وكان يركب خلفهم إذا ركب السلطان وكأنه يحفظهم، وهو أرفع الأمراء الطواشية شأناً وأقربهم إلى السلطان، وكان يشغل أيضاً رتبة أمير طلبخاناة، ، ومن الجدير بالذكر فقد كان يعاونه نائب برتبة أمير عشرة، هذا وقد كان للأمراء أيضا مقدمون للقيام على شئون مماليكهم. القلقشندي:صبح الأعشي،ج٤،ص٢١، ج١١،ص١٧٣؛ ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، مطبعة الواعظ، القاهرة، ١٩٠٦م ، ص٢٤٨؛ محمود رزق: موسوعة عصر سلاطين المماليك، ج١،

خطف العمائم كان أبرز ما يقومون به فى هذه التجمعات ، فحسبما يذكر ابن الصيرفى أن هذا القرار صدر " لأنهم كانوا يجتمعون طوائف ويتوجهون إلى متنزهات القاهرة فينهبون البضائع ويخفطون العمائم ويفسدون في النساء ولم يسمع هذا المرسوم إلا يومين وعادوا على ماكانوا عليه من هذا " [١] ، ورغم هذه الإجراءات الاحترازية من السلطة إلا أن ذلك لم يمنعهم من العودة لشغفهم القديم مستغلين أى مناسبة للاحتشاد ، ففى سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م أُدير المحمل على العادة ولكن حصل من المماليك غاية الفساد ، وتلخص هذا الفساد بأنهم صاروا يخطفون العمائم جهاراً [٢] .

ولم تتوقف ممارسات الجلبان الصاخبة التى تتمحور فى ممارسة العنف وخطف العمائم فعلى سبيل المثال سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م ثار جماعة من الجلبان ركبانا ثائرين على الناس بشوارع القاهرة ، وقد وصفت بعض النصوص تحركاتهم بأنهم قاموا بأخذ العمائم والشدود والثياب وغير ذلك ، ولم يكتفوا بذلك بل أنزلوا الكثير من الناس عن خيولهم ، وبلغ من أذاهم أنهم حتى أخذوا لجم الخيل، وفعلوا ذلك فى الشوارع والكثير من الأزقة ، وتعدوا في ذلك إلى بولاق، وبلغ أذاهم مبلغاً كبيراً عبرت عنه النصوص بقولها " وحصل للناس بسبب ذلك الكثير من الضرر والأذى حتى تهيأت العامة لإيقاع الفعل بهم " [٣] .

واستمرت ممارسات الجلبان المتطرفة تجاه المجتمع المصرى ، وزادت تعدياتهم ، وتعكس لنا حوادث سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م ما آلت إليه تطورات الأحداث ، فقد ثار بعض المماليك الجلبان بالمسلمين وأغاروا عليهم ، وخطفوا الكثير من العمائم، ولم يكتفوا هذه المرة بهذه الإهانة الرمزية ، بل أخذوا الكثير من الخيول من تحت الفقهاء والمتعممين، وشنعت الغائلة عليهم وعلى السلطان، وبالطبع فقد أثارت هذه الممارسات استياء عناصر المجتمع بأكمله ، وترتب على ذلك ذهاب مجموعات من الناس والأعيان إلى القضاة والعلماء ليتوسطوا لهم عند السلطان الأشرف إينال لوقف تعديات وتجاوزات مماليكه، وبالفعل تحدث القضاة والعلماء مع

ق١، ص٨٧.

[١] نزهة النفوس والأبدان،ج٣، ص٤٠١.

[٢] ابن إياس : بدائع الزهور، ج٢ ، ص١٧٩.

[٣] السخاوي:وجيز الكلام،ج٢،ص٦٨٩؛ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل،ج٥،ص٤٣٩؛ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص٣٢٤.

السلطان ، حتى أن بعض المشايخ خوفوا السلطان من عاقبة هذا الأمر، وأنه لابد عليه أن يتدخل لكف أذى مماليكه عن المسلمين، وبالفعل فقد استاء السلطان الأشرف إينال غاية الاستياء من هذه التصرفات، وأمر بإحضار جماعة من الجلبان بين يديه بالحوش وضربهم وتوعدهم، ثم وبخ بمقدم المماليك ونهره، وسجن بعضا منهم بالبرج، ولم يقف الأمر عند هذا بل نفي جماعة منهم، وتتبع آثار القائم بهذه الأفعال المشينة، ونفى جماعة من الجند البطالة أيضا[١] .

ولكن الغريب فى الأمر أن موقف السلطة هذا لم يردع ممارسات الجلبان ففى سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م نهب بعض الجلبان بيوتا كثيرة ، كما نهبوا مخصصات إحدى المدارس رغم أنها مجاورة للوزير والإستادار[٢]، وقد شجعت أفعال الجلبان هذه المرة عناصر أخرى قامت هى بممارسات النهب وخطف العمائم ، وهو ما ذكره السخاوى بقوله " ونهب بعض الغلمان والعبيد عدة حوانيت للتجار وخطفوا العمائم وأخذ الأجلاب الخيول من الفقهاء فنودى عليهم وأمر أستاذهم بالضرب والنفي وتوعدهم بالقتل فكفوا قليلا " [٣].

وفى الحقيقة فإن الكلمة السابقة التى انتهى بها النص كلمة بليغة " فكفوا قليلاً ، نعم كان سكون هذه الممارسات سكوناً وقتياً ، لم يدم عمره طويلاً ، ولذلك فإننا نجد فى العام التالى مباشرة حادثة أخرى مشابهة ، ففى سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م ثارت المماليك الأجلاب ، ولكن ثورتهم هذه المرة لم تكن على الناس أو العوام بل كانت على السلطان الأشرف إينال ذاته ، وأفحشوا فى أمره إلى الغاية حيث كان السلطان جالساً بقاعة الدهيشة[٤]، وقبل أن يصلى السلطان الصبح،

---

[١]ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٥، ص٤٦٥.

[٢]الاستادار: لفظ فارسى معربة يتكون من مقطعين استذ بمعنى الأخذ، ودار بمعنى ممسك، هى إحدى وظائف أرباب السيوف، وكان صاحبها يتولى صاحبها أمور بيوت السلطان بأكملها مثل المطابخ والحاشية والغلمان، والشراب خاناه وتعددت صلاحياته فقد كان له مطلق الحرية و التصرف في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى. انظر : القلقشندي: صبح الأ عشي، جـ ٤، ص٢٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٨٧ .

[٣] وجيز الكلام ، ج٢، ص ٦٩٧.

[٤]قاعة الدهيشة: بدأ فى بنائها السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانت ملاصقة للدور السلطانية ولكنه لم يستكمل بناءها، واستكمل بناءها ابنه السلطان الصالح اسماعيل سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، ومن الجدير بالذكر فقد تفنن في بنائها باستخدام عدد ضخم من الأحجار البيضاء والحمراء من بلاد الشام ، كما أحضر الرخام من شتى

ترامت إلى أسماعه صياح المماليك، وهددوه بضرب أحد رجاله ، مطالبين بأعطياتهم فحلف لهم أنه يدفع لهم ذلك في أول الشهر، فتركوه ومضوا، وأثناء عودتهم ككتل بشرية ضاربة لا تمارس سوى العنف والترويع لقوا فى طريقهم الشيخ علي الخراسانى الطويل محتسب القاهرة، وهو داخل إلى السلطان ، فنال نصيباً من طبيعتهم العنيفة ، حيث استقبلوه بالضرب المبرح المتلف، ولم ينسوا أن يأخذوا عمامته من على رأسه، ويبدو أنهم بالغوا فى إهانته فلم يستطع الخلاص منهم إلا بأن رمى بنفسه إلى باب الحريم السلطانى حتى نجا منهم[١].

لقد صار من الطبيعى ألا يمر عام بدون حوادث عنف من المماليك الجلبان تجاه المجتمع ومقدراته ، ففى العام التالى ٨٦٢هـ/١٤٥٧م اعتدى المماليك الجلبان على قانم التاجر[٢] أحد مقدمين الألوف[٣] وهو متوجه من الخدمة بالقلعة إلى داره، فأحاطوا به ، ولرمزية العمامة فقد قاموا بضربه بالدبابيس على عمامته وأخذوها منه ، ونجا منهم بصعوبة[٤] ، ولم تتوقف النصوص فى التأريخ لمثل هذه الحوادث ففى العام التالى أيضاً تشير النصوص أنه

البلاد وفرشها بأرقى أنواع الفرش والبسط والآلات. انظر : الشجاعي: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق وترجمة إلى الألمانية برباره شيفر، فرانزشتاينز للنشر، فيسبادن، ١٩٧٨م ، ص٢٧٣؛ المقريزى: الخطط المقريزية، ج٢، ص٦١ .

[١] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٠.

[٢] قانم التاجر: قانم من صفر خجا الشركسي المؤيدي المعروف باسم التاجر، اشتراه السلطان المؤيد شيخ وأعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية ،وترقى فى المناصب فأصبح خاصكياً في دولة ابنه أحمد، وصار أتابكا للعسكر ، وعظم شأنه في الدولة ، ووصفته النصوص بأنه صار مقصوداً لقضاء حوائج الناس، ومن مآثره أنه عمر العمائر الكثيرة، كما أنشأ مدرسة على ظهر الكبش بالقرب من جامع ابن طولون وتربة بالصحراء خارج القاهرة ، توفي سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م وقيل إنه مات بالسم. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠٠، ٢٠١.

[٣] مقدمين ألوف: إحدى الوظائف المرموقة فى العصر المملوكى ،و يطلق عليهم أيضا ألقاب أخرى مثل " أمراء المئين مقدمو الألوف"، أو " الأمراء المقدمين" أو " الأمراء الألوف " وكان لكل واحد منهم مائة فارس، وقيادة ألف جندى من أجناد الحلقة في الجيش، ومن الجدير بالذكر فقد اختلفت أعدادهم من سلطان لآخر وعلى حسب درجاتهم، كما كانت لهم علامات تشريفية خاصة بهم. انظر : القلقشندي: ضوء الصبح، ص٢٤٤؛ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م ، ج٢، ص١٤ .

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج١٦،ص١٢٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص٣٤٨.

فى سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م أدير محمل الحاج بالقاهرة ومصر ، ولم يترك المماليك السلطانية هذه الفرصة ، فعادوا لممارسة أعمال العنف ، حتى أن النصوص قد وصفت هذا بقولها " وحصل غاية الأذى من خطف النساء والمرد وخطف العمائم "[١] .

ولم تتوقف ممارساتهم فى العام التالى أيضاً ، وقد أثرت هذه الممارسات على شيوع حالة من الاضطراب والخوف على نفوس المصريين ، ويصور لنا نص ابن شاهين الأمر تصويراً بليغاً بقوله " فتخوف الناس بمصر من الجلبان لكثرة أذاهم وظلمهم وعسفهم وأخذ أموال الناس وإفساد حريمهم وأولادهم وخطف العمائم وسلب المارة بالطرقات بحيث زال الأمن والأمان سنة ٨٦٣هـ/١٤٥٨م "[٢] .

وفى ذات السياق ففى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ثارت جماعة من الجلبان ، وكانت الحجة هذه المرة المطالبة بالزيادة في جوامكهم [٣] ومرتباتهم، حتى أُغلقت أبواب القلعة، وحاول السلطان حل الأمر حيث أرسل بعض الأمراء يترضاهم، وسكن الحال ، ولكن هذا السكون جاء بعدما قاموا به من ممارسات عنيفة وصاخبة حيث استغل الغلمان والعبيد هذه الظروف وخطفوا الكثير من العمائم ، وأفحشوا في ذلك وكان السبب في ذلك تأخر الوزير حمل اللحم المرتب في هذا اليوم[٤].

وكيفما كان الأمر فلم يترك الجلبان أي مناسبة تمر بسلام دون أن يقوموا بخطف العمائم سواء كانت مناسبات دينية أو عامة أو سعيدة أو حزينة ، فقد كان هناك إصرار غريب على القيام بهذه الممارسة المُهينة ، فنجد أنه فى زفة الأتابك قانصوة خمسمائة سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م مشى فيها الأمراء والمقدمون بالشاش والقماش وبأيديهم الشموع الموقدة في موكب حافل حتى وصلوا إلى الأزبكية ، الأمر الذى أثار شهية العنف لدى المماليك الجلبان فحدث منهم غاية

---

[١] ابن شاهين الحنفي: الروض الباسم،ج٣ ، ص٤٤٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢،ص٣٤٨ ، ٤٢٨.

[٢]ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٦، ص٦٧.

[٣]جوامك: ، كلمة فارسية مركبة من (جامة) بمعنى قيمة، (كي) بمعنى أداة منه، مفردها جامكية وهي الرواتب المنحة المربوطة للشهر أو أكثر، وهي الرواتب العامة. انظر : إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية، ص٤٧٦، ٤٧٧.

[٤]ابن شاهين الحنفي: الروض الباسم،ج٤ ، ص٤١٤ ؛ نيل الأمل، ج٦، ص٣٣١، ٣٣٢ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٣،ص١٧.

الضرر في هذه المناسبة ، وخفطوا العمائم ، وضربوا بعض الأمراء المقدمين وخطفوا الشمع من أيدي الخاصكية ، وتطورت الأحداث حتى كادت تكون فتنة عظيمة[١].

ومن الطريف أن السخاوي ينقل لنا نصاً متعلقاً بخطف العمائم أما عن صاحب العمامة المخطوفة فقد كان السخاوى نفسه ، فيذكر حادثة خطف عمامته وهو متوجه مع أحد الأشخاص فقد أخذ مملوك عمامته في يوم شديد البرد جدا، ويبدو أنه لم يستطع القيام بأى رد فعل خوفاً من العواقب ، ويشير أيضًا أنه تكرر في هذه الأيام وقبلها وبعدها منهم ومن غيرهم أخذ العمائم، بل تطورت الأحداث بضرب العديد من الناس فى الشوارع [٢] .

لقد تحججت هذه العناصر المملوكية سواء كانوا من المماليك الجلبان أو المماليك السلطانية للقيام بممارستهم العنيفة المُهينة ، واختلفت حجج خروجهم ولكن ممارساتهم لم تختلف وهذه المرة كانت سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م حيث اجتمع بعض المماليك السلطانية عند بيت الأمير الأتابك قانصوه خال السلطان مطالبين السلطان الناصر محمد بن قايتباي بأموال ، فتهرب الأتابك منهم ، وهنا لم يتورعوا عن ضرب رجال الأتابك وأخذوا عمائمهم ، ونتيجة ذلك خرج إليهم الأتابك ووعدهم بصرف النفقة لكف أذاهم[٣] .

وكما ذكرنا سابقاً فإن ممارساتهم كانت تجد لها مكاناً أثناء المناسبات وخصوصاً لو كانت مناسبات عامة يكثر فيها التجمع والاحتشاد ، أما هذه المرة فقد تزامنت مع قرار السلطان الناصر محمد بن قايتباي بعقد المولد النبوي الشريف سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م ، وفى مناسبة عامة مثل هذه كان طبيعى أن يحضر الأمراء والقضاة وغيرهم ، وكان طبيعياً أيضاً أن يظهر المماليك الجلبان ما اعتادوا أن يظهروه من وجه قبيح ، منهم في هذا اليوم ما لا خير فيه في حق الأمراء والفقهاء ، فرجموا الأمراء من الطباق بالحجارة ، وسكبوا عليهم الماء المتسخ ، ولم ينسوا

---

[١] السخاوي : وجيز الكلام ،ج٣، ص ١٠٠٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٢٤٢.

[٢] وجيز الكلام، ج٣،ص١١٢٢ .

[٣] ابن الحمصي: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٠م ، مج٢، ص٣٣٤.

الاحتفاظ بتذكارهم الأثير حيث خطفوا عمائم الفقهاء ، ويبدو أن ممارساتهم قد فاقت الحد حتى أن السلطان لم يقو على صدهم[١] .

على أية حال فلم تصمت المصادر على مدار سنوات عديدة من التأريخ لحوادث خطف العمائم، فعلى سبيل المثال نجد أنه فى سنة ٩١٣هـ/١٥٠٧م كثر جلب المماليك الجراكسة من بلادهم إلى مصر، وحتى يعبروا عن هويتهم وطبعهم فكلما مروا بمكان نهبوا ما قدروا عليه ، وبالطبع فقد أثرت هذه الممارسات على المُقدرات الاقتصادية للدولة لدرجة أنها أثرت سلباً على الأسواق التى أُغلقت نتيجة ممارساتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يتوقفون في الطرق ليأخذوا عمائم الناس رغم أن غالبهم كانوا كباراً بذقون[٢] ، ولم يتوقف عبث هذه العناصر فى المجتمع وأيضاً لم تتوقف ممارستهم المفضلة من خطف العمائم ، مثل ما حدث سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م حيث زاد عبث وفساد المماليك في الطرقات على الناس ، وصاروا يخطفون العمائم والشدود وتعرضوا للنساء[٣].

وتأتى فتنة المماليك الجلبان بالقلعة سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م لتعبر عما آلت إليه الأمور من سوء وتردى حتى طالت السلطان الأشرف قنصوة الغورى نفسه وأظهرت عجزه أمام استفحال هذه العناصر ، فقد أغلق المماليك الأبواب في وجه السلطان ومنعوه من دخول الحوش وسبوه من الطباق سباً فاحشاً ونزلوا من القلعة ونهبوا بيوت الأمراء ونهبوا بعض الدكاكين من الشمع والحلوى والخبز ، وزادت ممارساتهم حتى شوشوا على الناس ، وبالطبع لم يتغافلوا عن خطف العمائم والشدود ، ومن المثير أن هذه الحادثة أثرت بشكل كبير على نفسية السلطان، وشق عليه ذلك ، لدرجة أنه بكى ووصل الأمر به بأن خلع نفسه من السلطنة ، حتى ألح عليه بعض المماليك للرجوع فرجع [٤] ، وهو ما يظهر ما آلت إليه أحوال السلطنة من تردٍ وضعف وهشاشة.

---

[١] ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣ ، ص٤٠٠.

[٢] ابن طولون:مفاكهة الخلان ، ق١، ص٢٥٦ .

[٣] ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص٢٧٨.

[٤] حيث رجموا من بالطباق فنزل السلطان الأشرف قانصوه إلى الميدان وجلس به وطلبوا منه إبطال المشاهرة والمجامعة التي قررها على السوقة وصرف اللحوم لهم وعزل كرنباي بن مصطفى الأحمر وطالت المفاوضات . انظر : ابن إياس : بدائع الزهور، ج٤ ، ص٤٨٤.

عقوبات خاطفى العمائم [١]:

لم تقف السلطة مكتوفة الأيدى أمام مثل هذه الممارسات المُهينة التى قام بها خاطفو العمائم ، فتصدت لهم فى العديد من الأحيان ، وأقرت عقوبات غليظة على مثل هذه الأفعال ، وتباينت مدى غلظة العقوبات من التهديد والتوبيخ والضرب وصولاً لأقصى درجات العقوبة من النفى أو حتى الإعدام ، ومن حسن الحظ فقد نقلت لنا المصادر نماذج متعددة من هذه العقوبات فنجد أن السلطة فى بعض الأحيان اكتفت بتهديد خاطفى العمائم مثلما فعل السلطان الأشهر إينال سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م حيث أمر بإشهار النداء بالتهديد لمن فعل ذلك[٢] ، كما صدرت عقوبات أخرى أخف حدة مثل الحرمان من النزول من الطباق وفقاً لقرار السلطان الأشرف برسباى الذى اتخذه سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م ضد المماليك الجلبان بعد تعديهم على المجتمع وخطف عمائم الناس [٣] .

أما عن عقوبة الضرب فقد كانت إحدى العقوبات التقليدية ضد خاطفى العمائم ، وتعددت الأمثلة على عقوبة الضرب كأحد العقوبات الرادعة لظاهرة خطف العمائم مثلما حدث سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ، فقد كانت عقوبة الضرب هى العقوبة التى أقرها الأمير أيدغمش بضرب ضد جماعة من الأوباش قاموا بخطف عمامة القاضى حسام الدين الغورى كما مر بنا [٤] .

وكذلك فى أحداث سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م تصدت السلطة لبعض خاطفى العمائم من العوام حيث أمر بن الزين الوالي وأمسك جماعة منهم نعتتهم إحدى النصوص "بالمفسدين" فشهرهم بالضرب ونادى عليهم[٥] ، وظهرت عقوبة الضرب لخاطفى العمائم أيضاً سنة

---

[١] سيلحظ القارىء عدم وجود تسلسل زمنى فى المحور الخاص بعقوبات خاطفى العمائم وذلك لأن الباحث لم يشأ أن يكون التسلسل الزمنى هو المحك الرئيسى فى عرض عقوبات خاطفى العمائم ، بل كان المنطلق الأساسى فى هذه الإشكالية هو تدرج العقوبات من الأخف للعقوبات الأشد بدءاً من التهديد وصولاً للإعدام .

[٢]السخاوي: وجيز الكلام،ج٢،ص٦٨٩؛ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل،ج٥،ص٤٣٩؛ابن إياس: بدائع الزهور،ج٢،ص٣٢٤.

[٣]ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥ ، ص٩٠؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣ ، ص٤٠٠.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٦٠ .

[٥] ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر، ج٢، ص١٠٦.

٨٩٠هـ/١٤٨٥م عندما هجم المنسر على الناس وهم في زيارة الإمام الليث بن سعد ونهبهم لبعض أضرحة الصالحين وهنا صدرت الأوامر بضربهم بالمقارع ، ولم يكتفوا بضربهم بل قرر أيضاً إيداعهم فى السجن [١] ، وهو ما تكرر أيضاً سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م ضد جماعة من المماليك الجلبان بالضرب قاموا بخطف عمائم الناس فى الشوارع [٢] .

إضافة إلى ما سبق وحسبما ذكر السخاوى ففي عهد السلطان الأشرف قايتباي قام أحد اللصوص بسرقة عمامة البدر محمد بن الشمس القرافي[٣] ، وهنا صدرت الأوامر بضرب هذا اللص ، ويبدو أنه تعرض لضرب مبرح مما حد السخاوى أن يصف ذلك بقوله " وضربه بحيث كاد أن يعدم "[٤].

كما كان التعذيب حاضراً أيضاً كواحد من العقوبات الصارمة ضد القائمين بخطف العمائم ، فعلى سبيل المثال يمكننا أن نرصد ما حدث مع عناصر العبيد الذين تحركوا سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ، ومارسوا هوايتهم الأثيرة فى خطف عمائم الناس ، وبناءً عليه ركب والي القاهرة بأعوانه وقبض على كثير من العبيد، وقطع آذان عدة منهم، وضربوا وشهروا [٥]، ويشير ابن شاهين أنه قبض على كثير من العبيد ممن كان في كائنة خطف العمائم ومن غيرهم ، بل أكثر من قبض عليه ممن لا دخل له في تلك الكائنة، حتى حصل على كثير من الناس من أهل الخير وغيرهم الضرر البالغ من ذلك[٦].

---

[١] ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل، ج٧ ، ص٤١٩ ، ٤٢٠ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣ ، ص٢١٨.

[٢] السخاوى : وجيز الكلام ، ج٢ ، ص ٦٩٧ ؛ ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٥، ص٤٦٥.

[٣]البدر محمد بن الشمس القرافي : محمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن شرف البدر أبو الأشرف بن الشمس القرافي الأصل المالكي، ولد بالقاهرة حفظ القرآن وسمع على الرشيدي وغيره واستقر في جهات أبيه بعده بل خلفه في قراءة منتقى ابن أبي جمرة من البخاري عند ضريحه استهلال كل سنة ، وحج أكثر من مرة وجاور وناب في القضاء ، وأُهين من السلطان الأشرف قايتباي وقتا بسبب شكوى امرأة انظر : .السخاوي: الضوء اللامع ، ج٩، ص٢٧ .

[٤] الضوء اللامع ، ج٩، ص٢٧.

[٥]ابن شاهين الحنفي: الروض الباسم،ج٤ ، ص٤١٤ ؛ نيل الأمل، ج٦، ص٣٣١، ٣٣٢ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج٣،ص١٧.

[٦]الروض الباسم،ج٤ ، ص٤١٤، ٤١٥.

ومن عقوبات التعذيب أيضاً التى أقرتها السلطة ما حدث سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م عندما صدرت الأوامر بالقبض على عبد خطف عمامة، ومن المثير أن الوالى أمر أن يتم تعذيبه بطريقة معينة وذلك بأن يقبض على سالفه ويجذب، ثم يقطع شعره بجلدة السالف، ففعل به ذلك، فيعود مكان نبات سالفه زيادة على تحليق السبابة والإبهام، وعمل بهذه الجلدة كما هي خيط وخرم في أنفه، وعلقت به هذا بعد ضربه بالمقارع الضرب المبرح ثم شهر كذلك[١].

كما كان التوسيط أيضاً أحد هذه العقوبات الصارمة التى واجهها خاطفو العمائم فى تلك الفترة ، ففي سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م وسط الوالي شخصا من الغلمان قيل عنه إنه كان يخطف العمائم في الأسواق بعد العشاء ، فعندما قبضوا عليه وسطوه في وسط الصليبة[٢] أمام حمام شيخو ، كما تم توسيط غلام آخر تورط فى نفس الفعلة [٣].

وفيما يتعلق بعقوبة النفى فقد كانت بدورها إحدى العقوبات الرادعة ضد هذه الممارسة ، كما حدث سنة٨٦٠هـ/١٤٥٥م ضد مجموعة من المماليك الجلبان الذين قاموا بخطف عمائم الناس والفقهاء وقد صدر هذا القرار بتوقيع من السلطان بل وتوعدهم بالقتل [٤] .

أما عن أقصى درجات العقوبة فلم تتورع السلطة أن تتخذ قرار بإعدام خاطفى العمائم فى العديد من الحالات ، فعلى سبيل المثال وتزامناً مع أحداث سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م عندما تحركت مجموعات من الغلمان والعبيد وأغاروا على القاهرة ونهبوا عمائم الناس فلم تقف السلطة صامتة أمام هذه التحركات الشرسة من العوام ، فأمر السلطان الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٢-١٤٦٠م) بضرب ثلاثة من العبيد بالمقارع، ثم أمر بشنقهم فشنقوا بعد أن طيف بهم بشوارع القاهرة، ومن أبرز الحيثيات التى تسوقها النصوص لإعدامهم بأنهم كانوا ممن خطفوا العمائم

---

[١] ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل، ج٨، ص١٧٤

[٢] الصليبة: يبدأ من ناحية المنشية، وينتهي من أول شارع حدرة الحناء أمام حارة بئر الوطاويط، وبه أيضاً من جهة اليسار عطف وحارات ودروب منها: حارة درب البوص ودرب المراحلية وعطفة حوش الحدادين. انظر :علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠١م ، ج٢، ص ٣١٣.

[٣] ابن إياس : بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٤١٦.

[٤] السخاوى : وجيز الكلام ، ج٢ ، ص ٦٩٧ ؛ ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٥، ص٤٦٥.

في ذاك اليوم [١] ، وحسب إشارات أخرى فقد شهد العام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م قراراً من السلطان قانصوه الغوري بالإعدام شنقاً ضد جماعة المنسر الذين هجموا على الناس ونهبوهم وخطفوا عمائمهم " [٢]

ومهما يكن من أمر وبناء على ما سبق يبدو للباحث كيف كانت الدولة صارمة فى مواجهة هذه الظاهرة ، والباحث لن يتوقف هنا أمام الصرامة فى توقيع العقوبة فى حد ذاتها بل ما يعنينا أن هذه الصرامة تعكس مدى الرمزية الكبيرة للعمامة فى المجتمع المملوكى ، وفى الذهنية الشعبية ، وكذلك فى تقدير القرار السياسى للسلطة فى العصر المملوكى .

الخلاصة :

ظهر واضحاً أن ظاهرة خطف العمامة كانت إحدى الظواهر التى أنتجتها البيئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى عصر المماليك الجراكسة ، ويمكن اعتبارها نوعاً من أنواع العدوان المعنوى على عناصر المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، كما لا يمكن سلخها عن مؤثرات سسيو – سيكولوجية ، وبقراءة إحصائية سريعة لحوادث خطف العمائم يمكننا رصد التالى :

[١] ابن شاهين الحنفي: نيل الأمل ، ج٦، ص٧١ .

[٢] ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٤ ، ص٣٩، ٤٠ .

جدول رقم (١)

السنة	الفئة القائمة بخطف العمائم
٦٦٢هـ	السلطة " منع النساء من التعمم "
٦٩٠هـ	السلطة " منع النساء من التعمم "
٧٢٣هـ	السلطة .
٧٢٧هـ	تصادم اجتماعى .
٧٤٣هـ	صبيان المطبخ " ثأر "
٧٤٣هـ	عوام وغوغاء .
٧٥٢هـ	لصوص .
٨٠٢هـ	لصوص .
٨١٨هـ	عوام وغوغاء .
٨١٩هـ	عوام وغوغاء .
٨٤٠هـ	المماليك الجلبان .
٨٤٠هـ	المماليك الجلبان .
٨٤١هـ	المماليك الجلبان .
٨٥٣هـ	عوام وغوغاء .
٨٥٩هـ	المماليك الجلبان .
٨٥٩هـ	غلمان وعبيد .
٨٦٠هـ	المماليك الجلبان .
٨٦٠هـ	المماليك الجلبان .
٨٦١هـ	المماليك الجلبان .
٨٦٢هـ	المماليك الجلبان .
٨٦٢هـ	المماليك الجلبان .

٨٦٣هـ	المماليك الجلبان .
٨٧٢هـ	المماليك الجلبان .
٨٧٢هـ	عبيد .
٨٧٩هـ	السلطة " رمى عمامة "
٨٨٢هـ	السلطة " إلباس أحد الأشخاص عمامة يهودى .
٨٨٧هـ	السلطة " صراع بين الأمراء "
٨٩٠هـ	لصوص .
٨٩٢هـ	المماليك الجلبان .
٨٩٥هـ	عبيد .
٨٩٦هـ	لصوص .
٩٠٢هـ	لصوص " عربان " .
٩٠٣هـ	المماليك الجلبان .
٩٠٤هـ	المماليك الجلبان .
٩٠٨هـ	لصوص .
٩٠٨هـ	عوام وغوغاء .
٩١٣هـ	تصادم اجتماعى .
٩١٣هـ	المماليك الجلبان .
٩١٧هـ	السلطة .
٩١٨هـ	المماليك الجلبان .
٩٢٠هـ	غلمان .
٩٢١هـ	المماليك الجلبان .

جدول رقم (٢)

الوصف الإحصائى

الفئة	تكرار	النسبة المئوية
المماليك الجلبان	١٧	%٤٠,٥
السلطة	٧	%١٦,٦
اللصوص	٦	%١٤,٢
العوام والغوغاء	٥	%١٢
العبيد والغلمان	٤	%٩,٥
التصادم الاجتماعى	٢	%٤,٨
صبيان المطبخ " ثأر"	١	%٢.٤
المجموع	٤٢	١٠٠

شكل رقم (١)

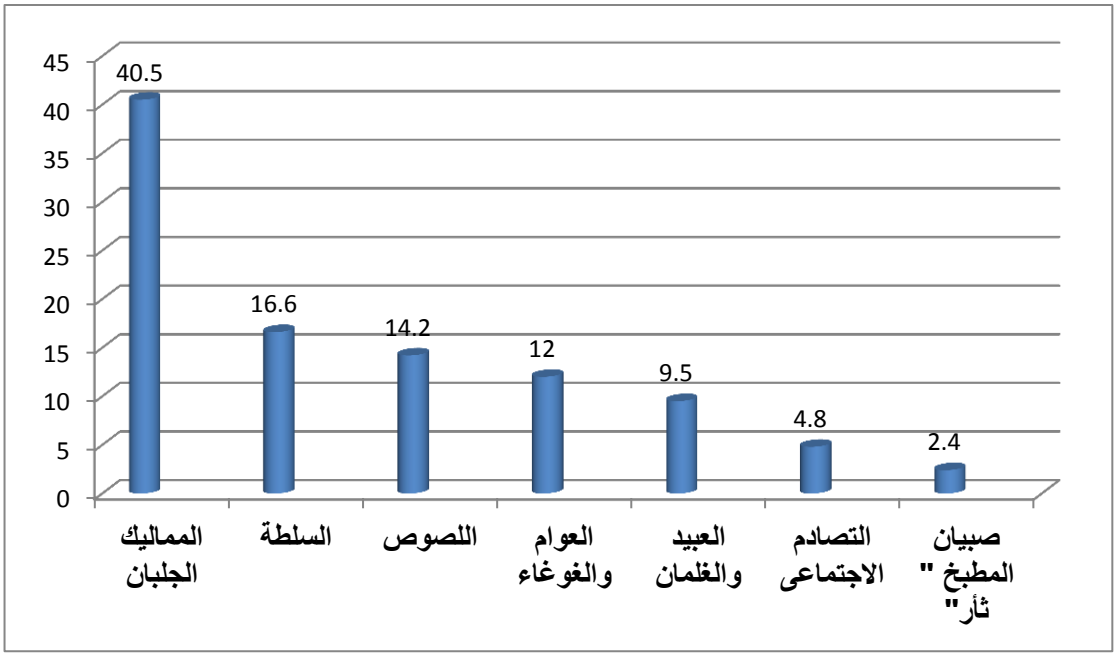

تفسير النتائج :

من خلال النتائج السابقة بدا بوضوح أن المماليك الجلبان كانوا أكثر الفئات التى مارست خطف العمائم بنسبة ٤٠,٥% من عينة البحث ، يليها السلطة بنسبة ١٦,٦% ، يلى ذلك اللصوص بنسبة ١٤,٢% ، ثم العوام والغوغاء بنسبة ١٢% ، ثم العبيد والغلمان بنسبة ٩,٥% ، وأعقب هذا حوادث خطف العمائم التى تزامنت مع التصادامات الاجتماعية بنسبة ٤,٨% ، ثم صبيان المطبخ بنسبة ٢.٤% وإن شكلت نسبة لا تذكر إلا أنها كانت فى سياق أخذ الثأر .

وفى الحقيقة فكما مر بنا من خلال الدراسة فلا يمكن أن نفسر ممارسات المماليك الجلبان إلا فى سياق نفسى واجتماعى ، فهذه العناصر رغم كل ما أُتيح لها من سلطة ونفوذ وصلاحيات كانت تشعر أنها كيان غريب منبوذ ومكروه من المجتمع المصرى ، وبالتالى مارست نوعاً من أنواع العدوان المعنوى الجمعى تجاه الآخر ، وتحركوا فى جماعات معضدين فكر الجيتو المنتمين له مع تبخيس الآخر والحط من شأنه وذلك وفقاً لما أسلفنا فى بداية الدراسة من مفاهيم نفسية واجتماعية .

وبخصوص النتائج التى أظهرت دور السلطة فى هذه الظاهرة فلا يمكن الاعتداد بها كثيراً فى دراستنا إلا فى ضوء رمزية العمامة وأهميتها فى المجال العام المملوكى ، ففى بعض الأحيان وظفت السلطة هذه الرمزية ثواباً أو عقاباً ، وهذه النتيجة الإحصائية شملت أيضاً صراعات عناصر السلطة مع بعضهم البعض ومحاولة النيل من رمزية العمامة .

أما عن النتائج الأخرى فهى تبدو منطقية إلى حد كبير ، حيث ارتبطت بممارسات اللصوص والتى يمكن تفسيرها بارتفاع أسعار العمائم ، أو بالعوز ، أو حتى بالعدوان على المجتمع ، أما العوام والغوغاء ، فالفقر والعوز كان محركاً رئيسياً فى دوافعهم تجاه هذه الممارسة ، والتهميش والإقصاء كان دافعاً أخر من دوافع تحركات العبيد ، والشغف بالتحركات الصاخبة وممارسات العنف فى لحظات الاحتشاد يفسر لنا ممارسة الظاهرة إبان التصادمات الاجتماعية ، وبرؤية أخرى يمكننا ضم فئات اللصوص ، والعوام والغوغاء والعبيد وعناصر الصدام الاجتماعى تحت فئة كبيرة يمكن أن نسميها المهمشين وهى ستشكل بحسبة إحصائية أخرى نسبة ٤٢.٩ % أى ستفوق ممارسات الجلبان التى شكلت ٤٠,٥% من عينة الدراسة (انظر شكل رقم ٢) ، وفى

هذه الحالة سيكون لها نصيب الأسد منافسة مع المماليك الجلبان فى هذه الممارسة الاجتماعية ، ساعتها سيكون الانتماء للجيتو والتسفيه من الآخر والحط من شأنه معبراً عن تصرفات المماليك الجلبان ، فى مقابل التهميش والإقصاء والعوز والتمرد معبراً عن تصرفات المهمشين فى هذه الممارسة الاجتماعية .

شكل رقم (٢)

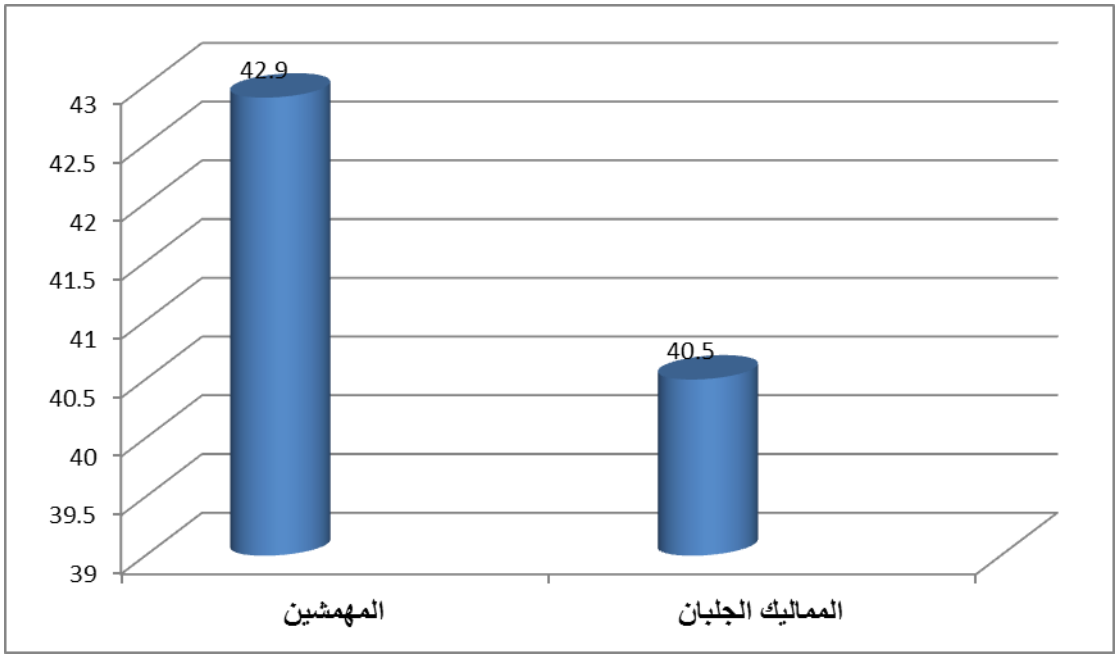

وفى الأخير فإننا أمام ظاهرة تاريخية استثنائية ، لم تكن مجرد شكلاً فلكلورياً ، بل شملت سياقات سياسية واجتماعية واقتصادية ونفسية ، وفى كل الأحوال فهى ابنة المجال العام المملوكى فى فترته الثانية ، بكل ما حمله هذا المجال العام من تناقضات صارخة .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية المطبوعة :

ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس) ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م.

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

البرزالي: (علم الدين القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي) ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م

المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م.

بيبرس المنصوري: (ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوري) ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م

مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٣م.

ابن تغري بردي: (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي) ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م

حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠م.

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق حسين نصار، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١م.

ابن الحاج: (أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد العبدري) ت ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦م.

المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، [د.ت].

ابن حجر العسقلاني: (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد) ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م.

إنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

ابن الحمصي: (أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري) ت ٩٢٤هـ/ ١٥٢٧م.

حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٠م.

الذهبي: (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان بن قايماز) ت٧٤٨هـ / ١٣٤٧م.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠م.

ابن الزيات: (شمس الدين محمد بن الزيات) ت٨١٤هـ/١٤١١م

الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، المطبعة الأميرية، مصر، ١٩٠٧م .

السبكي: (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي) ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م.

معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٨م.

السحماوي: (شمس الدين محمد بن محمد السحماوي) ت ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م.

الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم المعروف باسم المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق أشرف محمد أنس، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩م.

السخاوي: (العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م.

شافع بن علي: (ناصر الدين ابن رافع بن عبد الظاهر السعدي) ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م

حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز عبدالله الخويطر، ط٢، الرياض ١٩٨٩م.

ابن شاهين الحنفي: (زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين) ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م.

الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٤م.

نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.

الشجاعي: (شمس الدين الشجاعي) ت بعد ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤م.

تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق وترجمة إلى الألمانية برباره شيفر، فرانزشتاينز للنشر، فيسبادن، ١٩٧٨م.

الشعراني: (عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري) ت ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م.

لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الأخلاق المعروفة بالمنن الكبرى، دار التقوى، دمشق، ٢٠٠٤م.

الصيرفي: (الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي) ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م.

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.

ابن طولون: (شمس الدين محمد بن على بن طولون الدمشقي) ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

ابن عبد الظاهر: (محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي) ت ٦٩٢هـ-١٢٩٢م.

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

القلقشندي: (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي) ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.

ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، مطبعة الواعظ، القاهرة، ١٩٠٦م.

المقدسي: (عز الدين المقدسي) ت ٨٢٠هـ/١٤١٧م.

المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة، تحقيق محمد الششتاوي، دار الأفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.

المقريزي: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ج٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

ابن كنان: (محمد بن عيسى بن محمود بن محمد بن كنان) ت ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م.

حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت، ١٩٩١م.

النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري) ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م.

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب فواز، حكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :

إبراهيم عبد العليم حنفي:

البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م.

إبراهيم علي طرخان:

النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.

إبراهيم ماضي:
زى أمراء المماليك في مصر والشام، تاريخ المصريين ٢٨١، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م .
آمال العمرى:

أزياء المرأة في العصر العثماني، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.

حسن البطاوى :

أهل العمامة فى مصر عصر سلاطين المماليين ، عين للدراسات والبحوث ، القاهرة ، ٢٠٠٧ .

رجب عبد الجواد:
المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، دار الأفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
سعيد عبد الفتاح عاشور:

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

طه حامد الدليمى :

التشيع عقيدة دينية أم عقدة نفسية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
عبد الرحمن زكي:
موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام، ط٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م .
عبد المنعم ماجد:

نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م.

علي باشا مبارك:

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠١م.

غوستاف لوبون :
سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
ماجدة مصطفى الغمري:

قلعة الجبل في عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م.

محمد رجب النجار:

حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٤١م

محمد ضياء الدين الريس:

الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ط٥، دار التراث، القاهرة، ١٩٨٥ .

محمد فياض :

التشيع الشعبى فى العراق ، روافد للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠١٦ .

محمود رزق سليم:

موسوعة عصر سلاطين المماليك، ط٢، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٦٢م.

مصطفى حجازى :

التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥م.

موفق سالم نورى :

العامة والسلطة في بغداد، دراسة تحليلية، دار الكتاب، الأردن ، ٢٠٠٥.

وليم ماير:

الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م .

ثالثاً: الدراسات والبحوث :

أحمد عبد السلام ناصف :

صورة الثائر والمتمرد فى كتب التراث الشعبى : عثمان بن الحبلة وسيرة الظاهر بيبرس أنموذجاً ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة المنوفية ، السنة ٣٩ ، العدد ١١٣ ، الجزء الثالث . أبريل ٢٠١٨ .

أشرف صالح

التفسير السيكولوجي للتاريخ، بحث منشور في دورية كان التاريخية ، السنة الرابعة، العدد الثالث عشر، سبتمبر ٢٠١١.

إيمان صلاح عطاطة :

الطلاق والخلع والتحليل بين الممارسات الاجتماعية والنصوص الفقهية ، بحث منشور بمجلة الاستواء ، جامعة قناة السويس ، ٢٠١٩ .

محاسن الوقاد :

الحجابة زمن سلاطين المماليك، بحث منشور ضمن كتاب مصر في العصر المملوكي (دراسات حضارية)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

صرغتمش الناصري "الأمير الحاكم، دراسة في السيرة الذاتية (٧٣٧هـ -٧٥٩هـ / ١٣٣٦ – ١٣٥٧م)، بحث ضمن كتاب مصر في العصر المملوكي(دراسات حضارية)، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

The phenomenon of kidnapping turbans in Egypt, the era of the Circassian Mamluks

By

Dr. Muhammad Al-Sayed Muhammad Fayyad

Assistant Professor of Islamic History

Faculty of Arts, Tanta University

Abstract:

This study discusses a new problem of social history in the Mamluk era, which is represented in the phenomenon of turban kidnapping, that social phenomenon that expressed many political, economic and social practices, which reflected a state of popular rebellion, and the extent of this phenomenon's relationship to the psychological reality and individual and collective behaviors in the Mamluk era. , The researcher discussed this issue through multiple axes, including the specificity and symbolism of the turban in the Mamluk era society, attacks and movements of mobs and commoners and the kidnapping of turbans, social clashes and clashes and the kidnapping of turbans, thieves and theft of turbans, the Mamluks gallantry and the kidnapping of turbans, reaching the conclusion of the research and analyzing its results through a statistical approach.

Keywords: Kidnapping of turbans, the era of the Mamluks, the Circassians.